ABDULNASSER MUGALI

رجال الثلج

Snow Men

رواية A novel

عبدالناصر مجلي

الطبعة الثانية

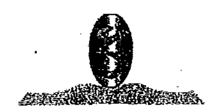


عبدالناصر مجلي

رجال الثلج

A Novel

رواية



بسم الله الرحمن الرحيم



تأسست المكتبة الأم في عدن قبل عام 1890
تأسس المركز في صنعاء عام 1994

رقم الإيداع بدار الكتب صنعاء 2009/104

الطبعــة الأولى 1430هـ الموافق 2009م
الطبعــة الثانية 1430هـ الموافق 2009م

مركز عبادي للدراسات والنشر
ت: 485691/ فاكس: 485692
سيار: 777219617 ص.ب: 662
صنعاء - الجمهورية اليمنية

التنفيذ الطباعـــي: مركز عبادي للدراسات والنشر- صنعاء

إلى القتلة الذين صنعوا لنا كل هذا الدمار!!!


Yemen Archive
ارشيف اليمن
YemenArchive
yemenarchive.com

فصل ما قاله "عبدالله" قبل أن يموت بعمره المنقوص الأرقام

حصار القتلة أتاه من كل اتجاه. كانوا أربعة. تركُهُ الباب مفتوحاً كان سبباً كافياً للقتل. "المال أو حياتك". كانت كبيرة عليه تلك الجملة المتحدية، كبيرة في تحملها، في تصديقها، وفي الاستجابة لها. "هي المعركة"، وزرعوه في عيونهم الكلبية.

أحس بطعم الدم في لسانه، حاول التراجع باتجاه الهاتف، أو الضغط على جهاز الإنذار الموصول مباشرة بمركز البوليس؛ لكنهم دهموه شاهرين فؤوسهم التي تطلق النار. جسده كان هدفاً لمقتهم، وهم أهداف حيوانية تسعى إلى غنيمة صعبة المراس. سحب مسدسه بسرعة خاطفة من صندوق خشبي أسفل آلة المحاسبة الإلكترونية. المساء كان شتاءً، والمكان محطة بنزين في شارع مقفر، والوقت ينز ثلجاً كئيباً كما لو أن شخصاً ما يجب عليه أن يموت.

دهمه خوف مرعب، أدرك أنهم لن يعودوا عن مهمتهم إلا بعد أن يشبعوه موتاً. ولن يكتفوا بأخذ المال، فقد رأى وجوههم رسل الموت، وهم لن يتركوا وراءهم شخصا ما يثرثر عن أوصافهم مع البوليس.

تذكر "وداد" وهي تلثغ بصوتها في الهاتف. سمع صوتها الحبيب قبل سبعة أيام بالضبط من موته، قبل أسبوع كامل من أن يغدو مجرد صور سيحتفظ بها الأحبة حتى تبلى، وحتى يختفي من لوحة الذاكرة التي ستمتلئ ذات يوم.

أطلق النار، لم يصب هدفه، هجمت عليه أفاعي البارود، لدغته في أماكن متفرقة من جسده. نازفاً من خلال الثقوب القسرية سوائل روحه، تراجع إلى الوراء مذعوراً تحرقه نار كاوية تشتعل في أعماقه، تعثر في تراجعه، سقط على الأرض يعض شفته من شدة القهر، قهرٌ تفجر مثل قذيفة مجنونة يمكنها دكّ ألف مدينة وشارع وروح، قهر العجز من سرعة المبادرة والدفاع عن النفس في وقت ضيق هو آخر ما تبقى له من عمر.

طلقة في الجهة اليمنى من الصدر، وأخرى في الركبة، وثالثة في يده اليسرى. كانوا يطلقون النار وهم يتقدمون باتجاهه لا يرمش لهم طرف، كما لو أنهم يسيرون في نومهم. كل شيء كان يحدث بسرعة مذهلة، لكن تلك الثواني مرت عليه كدهر.

تيبس مكانه، وثمة موت يُصنع له على عجل. هو وحده من عليه المغادرة. "وداد" تجلده بحضورها المباغت من الغيب. سقط على ظهره والدم ينزف من أنفه وفمه ومن ثقوبه القاتلة، والمسدس لا يزال في يده. لم يغمض عينيه، كان يراقبهم يتقدمون إليه، رُسل الموت.

صوبوا مسدساتهم إلى جسده وأفرغوها دفعة واحدة في تفاحة عمره القصير، وجعلوه نسيجاً ممتلئاً بالثقوب. "قتلوني يا أماه... قتلوا...!". كانت صرخته الأخيرة كافية ليصل صداها إلى "جُبَنْ"، حيث تنتظره "وداد".

ظل مفتوح العينين، لم يترك المسدس يسقط من بين أصابعه، وأسنانه تضغط على شفته بجنون. قبل أن يغيب استجمع كل ما تبقى له من قوة، زفر آخر قطرات ماء الروح وضغط على الزناد، وثمة خدر ماحق يجتاحه. انطلقت طلقته مسرعة كما لو كانت في عجلة من أمرها قبل فوات الأوان، لتثقب

إحدى الجماجم الأربع ثقباً قاتلاً وانطفأت بعدها ذبالة الصدى كما لو أن الصوت لم يخلق بعد.

لم يعد يسمع أصوات قتلته، لم يسمع صوت ارتطام جثة أحدهم عندما اصطدمت بالأرض، فقد هدأت حركته حينما استقرت طلقة غادرة في تجويف قلبه، أجبرته على الصمت الأبدي، فلم يصدر أي صوت، وبدا وكأنه أخلد إلى النوم مفتوح العينين.

فصل صنعاء وما جرى فيها من أحداث مثل فيلم سريع اللقطات

كُنا أربعة محمود وصالح ومحسن وأنا؛ شباب في مقتبل العمر، هاجسنا الكتابة والسعي نحو مستحيل اسمه المجد. أتينا من كل فج عميق، في ظهيرة ذلك اليوم المشهود، العمال، الطلاب، الموظفون، المتسولون، النساء، والأطفال.

آلاف مؤلفة من الناس، يملؤها الفرح. كان علينا، قبل أن نصل إلى تلك الظهيرة، المرور بأنهار جارفة من دم أخوي نزفناه في تناحرات بائدة، وبوديان من جثث وبحربين ضاريتين.

كان علينا أن نكره بعضنا، وأن يتربص الواحد منا بالآخر ليقتله، "علينا بقتل الشيوعيين الكفار الملاحدة". تربص، وتربص أعمى مضاد. "يجب أن نمزق بأسناننا الرجعيين ودعاة التخلف والعودة إلى الوراء". كان مقلباً مخزياً تجرعه شعب بأكمله على مدى سنين طويلة كسبنا فيها آلاف الأيتام والأرامل والعاهرات.

الظهيرة كانت إحدى ظهيرات مايو، واليوم هو الثاني والعشرين من نفس الشهر، والسنة كانت ١٩٩٠ للميلاد، قبل هبوب ريح صيف جارح ستهب علينا في أغسطس بجنون التواريخ كلها(*).

(*) بجنون التواريخ كلها: المقصود غزو العراق للكويت وما تبعه من أحداث عاصفة.

لم نكن ندري أننا، وفي الرابع من نفس الشهر، سنلعب حربنا الثالثة بعد أربع سنوات، وفي الثاني والعشرين من ذات الشهر سنلعب لعبة الانفصال القاتلة، كما لو أن شيئاً لم يحدث، دونما خجل من أطفالنا ونسائنا ومن العالم والتاريخ.

خضنا حربنا الثالثة لأننا لم نستطع الاحتكام إلى العقل الذي كنا نظن بأننا نملكه. ها قد بدأت التنظير الأعور كما هي عادتي.

"وحدتي... يا نشيداً خالداً يملأ نفسي". الأناشيد الوطنية تملأ ساحة ميدان التحرير، والفرح يعم الجميع؛ لكنني كنت أشعر بشيءٍ ما سيحدث، شيء مروع يراقبنا من مكان خفي في نفوسنا، وينتظر الوقت المناسب ليفاجئنا وينقض علينا كالصاعقة. "باسم الشعب...". وقف هذا الشعب الذي يقسم باسمه على أصابع أقدامه، ليشاهد الحلم وهو يتحقق أمامه، غير مصدق ما يسمع ويرى. معقول!؟ أبعد كل هذا العناء والخوف وسيول الدم وجبال الضغينة والحقد والتوجس؟!

".. نعلن قيام الجمهورية اليمنية في هذا اليوم العظيم..". رُفع علم البلاد الجديد، والأمة في فرحها ورقصها، وحدي يفتُّ في كبدي خوفٌ لا أدري له سبباً رغم فرحي، رغم الدموع التي تساقطت عندما أيقنت أن بلادي صارت لُحمة واحدة بعد طول انتظار.

التقطنا الصور التذكارية وسط الميدان، وصنعاء القديمة التي طالما عبرنا مساءاتها مثل الغرباء تراقبنا بفرح مستريب. كنا قتلة نعبر فوق جثثنا دون أن ندرك ذلك.

- اليوم عيد وأنت ساكت أيها الإقطاعي كما لو كنت في مأتم!

قال محسن موجهاً كلامه الساخر إليَّ، فلم ألتفت إليه، أراقب ما يجري أمامي.

- منظر الجنود لا يعجبني!!

– وما الذي لا يعجبك فيهم!؟

رد محمود

– ملابسهم!

– ما بها؟!

– ألم تلاحظوا أن الأفراد يلبسون ملابسهم العسكرية الشطرية السابقة!؟

– فعلاً!

قال صالح وهو يتابع سيارات الدورية.

– وهذا ما يخيفني!

– يا رجل نحن في يوم أمن ووحدة وأنت ترطن بالخوف! ما الذي يخيفك؟!!

محمود صديقنا العصبي المزاج دائماً انفجر في وجهي معاتباً ومؤنباً. ألتفتُّ إليه وسحبت لفافة دخان أشعلتها وأخذت نفساً عميقاً

– ما يخيفني يا أصدقائي ليس الزي، ولكن العقلية التي سندخل بها دولة الوحدة! العقلية هل تفهمون؟!

سكتوا، لم يتكلم أحد، كانوا يقلبون كلامي في رؤوسهم، بينما كنت أتمنى أن تكون فرحتي كاملة. كنت أشعر أنني أقترف ذنباً لو صدقت كل ما يجري أمامي دون تساؤل: كيف؟! ولماذا؟! ماذا عن دماء الأبرياء الذين قُتلوا لا يدرون سبباً وجيهاً لقتلهم!؟ على الأقل ليعتذروا لأحبائهم عن كونهم قتلى دون علمهم!

ماذا عن المشوهين والمفقودين والمنسيين واليتامى والأرامل و... و... و...!؟ ماذا عن العمر الذي قضيناه نجتر كذبة كبيرة اسمها العدو الآخر،

يعني الشطر الآخر!؟ أبداً لم أكن ضد وحدة بلدي، لكنني كنت ضد الزيف، ضد وصول القتلة إلى كراسي سنحملها على أكتافنا.

- لو لا معرفتنا العميقة بك لظننا أنك ضد وحدة الوطن!

كان اتهاماً مبطناً ذلك الذي صعقني به محمود، وكانت الطعنة التي جعلتني أنفجر في وجوههم...

- يا أصحابي، يا إخواني، يا بني شعبي المساكين... حب الوطن لا يعني أن نجعل الجلادين والقتلة وقادة المعتقلات وزارعي الألغام في كل شبر من هذا الوطن، قديسين؛ فلتكن وحدة، ولتكن أي شيء يريدون، لكنهم لن يستطيعوا أبداً أن يمسحوا الحزن من مآقي الأيتام، ولا أن يعيدوا للأرامل أحباءهن وآباء أطفالهن. بل إنني أوشك أن أقول إنهم هم هؤلاء من سيقودوننا جميعاً إلى الهاوية؛ لكننا هذه المرة سنكون يقظين وسنكون لهم بالمرصاد، ولن نسمح لهم بإراقة دماء أكثر مما أراقوا، وسترون...!

كان غضبي ماحقاً، جعلتهم يلزمون الصمت خشية أن يتطور الأمر إلى ما هو أسوأ من المجادلة؛ ولمَ لا؟! فقد فعلناها مرات عديدة، لكننا كنا سرعان ما نتصالح مثل أطفال مشاكسين وأغبياء.

- يا جماعة، يا جماعة، حبيبنا علي مسافر بعد مدة قصيرة إلى أمريكا، ولذلك فهو يريد أن يُخرج كل ما في صدره، يعني لو كنت رايح كثرت الفضايح.

تدخُّل محسن خفّف من احتقان الجو بيننا، ولولا معرفتي بمحمود والبقية لظننت أن في الأمر شيئا ذا بال ابن قحبة لا أدريه، لكن غمزته التي وصلتني دون أن يراها الأصدقاء جعلتني أتساءل بيني وبين نفسي هل فعلاً هذا هو السبب؛ أعني هجرتي المنتظرة هي ما جعلني أبدو أكثر صراحة وأيضاً لا مبالاة بما يجري في بلدي؟!

كان تساؤلاً موجعاً وجارحاً بدرجة لا تطاق هل من المعقول أن أمريكا قد سلبت قلبي إلى هذه الدرجة حتى قبل أن أراها؟!

أنا أعرف نفسي جيداً، وأعرف أن سفري ليس سوى هروب من رتابة القات، وضجر المساءات المملة، ومن ضيق العيش، ومن انغلاق نوافذ الآفاق أمامي. لم يكن بغضاً لصنعاء، بل هروباً من أسرها؛ لكي أحبها أكثر، هكذا أخبرتهم في مقيل ذلك اليوم، متفلسفاً بخواء مقرف.

كنا أربعة، نكتب الشعر والقصة، يحرقنا طموح هائل إلى الشهرة، جميعهم أنهوا دراستهم الجامعية وصاروا كُتَّاباً معروفين. وحدي الذي تخلف، لمئات الأعذار والتبريرات لا أصدق واحداً منها اليوم.

كانت أياماً مرت ولن تعود. نسيت الكتابة، وأصبحت مجرد مهاجر همه الرئيسي السعي إلى جمع المال، أسوة برفاق التيه الأميركي المفزع والوحشي التفاصيل، ومطاردة النساء والتحليق في سموات الكيف المذهلة. وعندما عدت إلى صنعاء أول مرة، بعد أن قضيت عدة سنوات، كان ثمة حرب ضروس تضع أوزارها، وكان محمود قد جُنَّ، لا ندري لماذا! وحينما رأيته يهيم في الشوارع بكيت، ثم علمت لاحقاً عند عودتي إلى ديترويت أنه قد مات تحت عجلة إحدى السيارات، فضاقت الحياة في وجهي أكثر مما هي عليه، خصوصاً أننا كُنّا قد حاولنا علاجه لكنه لم يستمر في طريق العلاج. كان يبدو أنه قد اختار نهايته حسب الطريقة التي ارتضاها لنفسه.

أما صالح ومحسن فقد تزوجا، كل من نَجَد، كما يقولون، وشغلتهما الحياة بمتطلباتها الكثيرة، وأخذا يبتعدان قليلاً قليلاً عن دائرة الكتابة والأضواء، يمزقهما إحباط مدمر يسعى في الشوارع والأرواح.

في عودتي تلك كان كل شيء قد تغير تقريباً، فعدت أدراجي إلى مصيري الذي ينتظرني هناك وراء المحيط، فقد كان عليَّ، كما يبدو، دون قصد أو ادعاء

بطولة فارغة وبنت كلب، أن أخوض تجربة المهجر الأمريكي بمفردي، كي أدرك مدى ضياعي ووحدتي التي تتلبسني مثل جلد لا أعرفه.

مرت سنة كاملة وكأنها دقائق أو بضع ساعات ولم يتغير شيء، ولم نلحظ أي بذرة أمل قادم. كان الجميع مشغولين بالتقاسم. وكنا مشغولين بمتابعة تجييش العالم لخوض حرب ضارية لإخراج "صدّام" من الكويت.

قمنا بتأسيس جماعة أدبية، مستغلين الهامش الديمقراطي الذي منحته لنا حكومة الوحدة. نمضغ القات بعد ظهيرة كل يوم، ونتراشق الكلام جزافاً وعلى عواهنه، عن أمريكا وطبول الحرب التي تدقها لاحتلال الخليج دفعة واحدة بدعوى تحرير الكويت، وعن ماركيز وجنرالاته الممسوسين بالنساء والمصابين بعسر هضم دائم، وعن الرازحي وشطحاته التي تثير الضحك والإعجاب، وأيضاً عن النساء الشقر اللواتي ينتظرنني في الأرض الجديدة... تئزُّ صدورنا مثل صناديق مكبوتة كلما مرت فتاة من أمامنا أو خطر خيالها في أحلامنا.

كنا أربعة، صعاليك بكل ما تعنيه الكلمة، صعلكة صباحية في أروقة كلية الآداب، مقيل يجمعنا عصراً، قنينة شراب نجرعها مساءً إذا وافقتنا الظروف، نمتلك خبرة لا بأس بها في قضاء بضع ساعات أو أيام في ضيافة الأمن الوطني، وخبرة عالية كذلك في تحديد عدد الإهانات والصفعات والتهديد بالاغتصاب "يا أبناء الزواني! سننيك أمهاتكم وأخواتكم واحداً واحدا. مفهوم يا مخانيث!؟". لا ندري على وجه الدقة أسباب اعتقالنا وسلخ أعراض أمهاتنا أمامنا بتلك السعادة الأمنية المبالغ فيها إلى درجة تُجرِّئنا على الرد غير مبالين بالعواقب المرعبة لذلك.

وحدي من كان يترقب كارثة قادمة. وقد صدق حدسي، واختلف الشركاء وأقاموا عرساً دموياً، عرساً استمر واحداً وسبعين يوماً كاملة. لم نحايد ولم نصمت، بل وقفنا مع الوطن ووحدته التي تحققت بمعجزة لم نتوقعها

ولم نكن ولا زلنا لنتخلى عنها مهما كانت الظروف والتبريرات والمظالم التي تنهار تحت ضرباتها أضخم الجبال وأعتاها، أنا من المهجر وبقية الزملاء من الداخل. وانتصر حلمنا الكبير، رغم المساوئ، رغم الضيم، رغم كل الآلام، انتصرت إرادتنا. وعندما أقول هاتين الكلمتين الفضفاضتين أشعر كما لو أنني أكذب على نفسي. صحيح أن البلاد خرجت موحدة بالحديد والنار وأنهار جارفة من الدم، وتم التخلص من قبائل القتلة وعبَّاد الأيدلوجيا العوراء والمأزومة؛ لكنها وقعت كذلك في قبضة قراصنة الفيد الربوي البشع التصرفات والأفعال ولصوص التواريخ الثورية التي لا تمت إليهم بصلة، ولا يمتلكون أدنى نسب إليها مهما نبحوا بعكس ذلك، باستثناء ربما محقق هذا المشروع والمدافع عنه هو وقلة مخلصة معه لا تكاد تعرف، رغم الإخفاقات والمساوئ هنا أو هناك والفساد البشع الذي يلتهم الأخضر واليابس، وخسرنا "محمود" تحت عجلات مسرعة شطرته نصفين.

كنا نواصل الكتابة كخيارٍ أخير وأبدي لرفض العالم والناس والطغاة. كنا مجانين طيبين يصليهم الفقر وذل الحاجة والأحلام المستحيلة التحقق.

ذات يوم ذهبت إلى السفارة الأمريكية بعد أن استعرت بذلة تليق بالمناسبة من أحد الأصدقاء، وكذبت عليهم بأنني أود زيارة أمريكا للسياحة والاستجمام، مع أنني كنت لا أمتلك قيمة غداء ذلك اليوم. كان شكلي مقبولاً، وثمة أثر لنعمة غابرة على مُحيَّاي لا أدري مصدرها، تجعلهم يصدقونني؛ لكنني رُفضت رفضاً إمبريالياً ابن قحبة وزانية بكل ما تعنيه الكلمة من أي شيء لا أراني ملزماً بتحديده.

حاولت بعدها مرة ثانية بعد مضي ثمانية أشهر، فمنحوني فيزا سياحية دون إبداء الأسباب، كما رُفضت من قبل للأسباب نفسها. أخذت جواز سفري وأسرعت إلى الجامعة وصرخت بأعلى صوتي "أيها الزملاء، أيتها الزميلات، يا أوغاد الأرض! اعلموا أنني مهاجر إلى أمريكا!".

فصل ما قاله محسن قبل السفر بفصاحة مترددة

- علي! أريد الصدق، هل تنوي الهجرة فعلاً؟!

- أفكورس ماي فريند.

- أعطني سبباً واحداً لذلك واترك عنك المزاح!

- بدون سبب، لعله الهرب، الفقر مثلاً!

- معاش والدك الشهيد يكفيك أنت وجدَّتك، يعني الفقر ليس سبباً كما تعتقد!

- لقد ظننتك ستشجعني على السفر!

- سنفتقدك، ابقَ معنا وسيفرّجها ربك، مستقبلك في بلدك وليس في بلاد الآخرين، صدقني!

- أقول لك إني هارب من كل شيء، فأنا لا أرى هذا الفرج المزعوم المرسوم في عقلك، بل أرى مجزرة قادمة.

- مجزرة؟! إنك تهوِّل الأمور كما هي عادتك؛ لقد ولى زمن المجازر، إننا نعيش عهد السلم والأمان.

- أتمنى هذا من كل قلبي، لكنني لا أريد أن أكون شاهد زور!

- شاهد زور على ماذا يا أخي؟!
- على ذبح البلد التي أراها تسلم نفسها لجزاريها دون حذر كاف.!

قلتها بكل ثقة وكأني أرى ذلك أمامي، كانت ثقة عمياء لا أدري من أي داهية استعرتها.

أفحمتْه إجابتي، وركَنَ إلى الصمت، بينما أوشكت أنا على البكاء؛ كنت أشعر بوحشة قاصمة تثقل ظهري، وتعب عارم يغلي في أوردتي، وضياع ماحق يهريني لا أدري لماذا! وأفلتت من يدي كل أسباب النظر برويَّة إلى مسألة سفري من عدمها، ولم أعد أدري ماذا أفعل بعدما تشوشت أفكاري وغامت الرؤية في قلبي وبصري.

حينما غادرت صنعاء باتجاه الغرب الأقصى، لم يكن في وداعي من الأصدقاء سوى "محسن"، بكى كثيراً إلى درجة أحرجتني، كما لو كان أُمًّا تودّع فلذة كبدها الوحيد ولن تراه إلى الأبد. كان شديد العاطفة. وكنت جامداً مثل حجر قديم. "انتبه لنفسك يا صديقي!".

أذكر أن وجهه كان آخر وجهٍ أحبه يودعني والدمع في عينيه قبل الإقلاع. لوَّحت بذراعي واتجهت إلى صالة المغادرة، باتجاه تعب أُعِدَّ لي على مهل ولم أكن قد تخيلته بعد، باتجاه المأتم الكبير المتعملق هناك.

كانت الأقدار تشدني من تلابيبي لأكون شاهداً على الزهرات التي تقطفها ذئاب الأسمنت. رأيت الصغار وهم يوسدون جلودهم الباردة، ممزقي الأجساد، قبوراً لا قعر لها. سمعت ورأيت الأمهات يلطمن على الأحباب الذاهبين في القتل مثل بيارق نكست سريعاً...

كان تعباً مضاعفاً، وكنت ممزقاً ما بين حنين جبار يشدني باتجاه سمرة الجبال البعيدة، وما بين انجذابي إلى "جيتو" جاليتي التي تسير ببطء ثابت إلى الاندثار.

أين أذهب في هذا الجحيم الذي يحيط بعمري!؟ أين الهرب من دائرة المأتم الكبير الممتدة في داخلي ستة عشر ألف كيلومتر من صنعاء وحتى ديترويت!؟

صبرت، تجلدت، وبكيت، وحاولت قتل نفسي مرات عديدة، وفشلت، حتى تحولت إلى تمثال محطم لم يندثر بعد. كنت أقاوم الانهيار، قبل أن أرفع راية الاستسلام مرة واحدة وإلى الأبد.

فصل "مثنى" ودخوله المبلول وابن الحرام إلى مدينة النكران والقتل المنتظر

- هل تجيد السباحة؟!

- قليلاً!

- يعني بالعربي الفصيح تستطيع السباحة بضعة أمتار؟

- هيك وهيك!

- طيب يا بطل الهيك وهيك، جهّز حالك لغطسة سريعة وفردة ذراع!

- لم أفهم يعني شو فردة ذراع.

- يعني، الحكاية يا صاحبي، بكل بساطة، تتلخص في كلمتين يجب أن تقفز إلى الماء، وتواصل المسافة الباقية سباحة حتى تصل إلى الميناء، فهمت؟!

شتاء ١٩٢٠ كان في أوله، وعابرة المحيط "الأميرة" كانت تناور مناورتها الأخيرة استعداداً للرسو، معلنة بذلك انتهاء رحلتها بين مرسيليا ونيويورك. وثمة ثلج خفيف يتساقط صامتاً مثل بلورات من سكر ميت على عالم منسي لم يسمع به أحد من قبل.

- لكن الماء شديد البرودة يا جورج! ألا توجد طريقة أخرى؟!

- أسمع يا "مثنى"! ليس أمامك طريقة سوى هذه!

- القفز في الماء!

- إيه بله بل على قولك.

- لكن أعني الدنيا برد يا رجل يقطّع أذناب الوحّر(*).

- يقصف عمرك شو جبان! أنت حقيقي تريد دخول أمريكا؟

- أكيد، وإلا لما كنت هنا الآن أستمع إلى كلامك الخرائي هذا.

- إذاً عليك بالماء!

- يا أخي فهّمني! هل تعني أنه لكي أكون مواطناً صالحاً في هذه الامريكا، يجب عليَّ الوصول سباحة؟! ثم إن الماء شديد البرودة وقد ألاقي حتفي وأتجمد مثل لوح من خشب، مثلك!

- اللهم طوّلك يا روح! يا بني آدم، يا حبيبي، يا عمري، أنت تعرف أنك صعدت إلى هذه السفينة بـ"هيك وهيك"، يعني تهريب، صح؟

- أيوه، صح، لكن أيش دخل التهريب في إصرارك على قتلي بالسباحة؟!

- يعني يا أخي، الله يرضى عليك، لو رآك قبطان السفينة، بشرف أمي، سوف يسلمك لرجال البوليس، ليعيدوك من حيث أتيت على أول باخرة بعد أن تشرّف عندهم كم شهر أو سنة في أحد السجون، الله اعلم! لذلك يجب عليك ألاّ تضيع الفرصة من يديك، وتدبّر حالك كالآخرين الذين سبقوك.

- أدبّر حالي!؟ كيف؟! لقد ظننت الأمر عكس ما تقول، فأنا وإن وافقت على السباحة كما تقول، وعلى افتراض أني سأصل حياً إلى الشاطئ، لا أعرف أحداً في المدينة، وقد أتعرض للضياع، وبعدين قل لي، من أين جت حكاية شرف أمك الجديدة هذه.

- هذا شيء لا يخصك، وخليك بعيد عن شرف أمي أحسن لك هه!

(*) الوحّر (بتشديد الحاء): زواحف من فصيلة السحالي مشهورة بصلابة الأذناب.

- يا رجل اتقِ الله! أنا شخص عربي مثلك يا كلب يا ابن الكلب، عيب عليك معاملتي بهذه الطريقة اللامبالية! ثم إذا لم تقم بمساعدتي أنت فمن سيمد لي يد العون؟!

بدا السوري وكأنه قد أحس بالحرج.

- اسمع يا "مثنى"! أنت تعلم جيداً أنني أدخلتك إلى هذه السفينة خفية عن القبطان، بدفع المعلوم للمساعد في مرسيليا، صح؟!

- صح وصحيح وصحوح، ولن أفعل ما تقول.

- يعني لو رآك ابن الكلب الآن سوف يخرب بيوتنا جميعاً، وقد ندخل السجن ونطرد من العمل، وهذا لا يرضيك!

- لا يرضيني أبداً، خصوصاً عندما أتحول إلى قطعة بشرية من جليد حتى لا تُطرد من العمل.

- "مثنى"، من فضلك موش وقت المزاح الآن! وبدك أو ما بدك ليس أمامك سوى النفاذ بجلدك وجلودنا معك من شان الله! أحسن لو أمسكوا بك أبناء الشراميط سوف نأكل خراء.

- طيب، سوف أصدق كل ما قلته الآن، لكنني فعلاً لا أعرف أحداً هناك، ثم هذا الماء الذي تصر على تعليمي السباحة فيه بارد وقد يقتلني، يعني أموت يا بني آدم! أموت! بينما أنت مهتم بقبطانك المنيك.

- أوكيه! عندي حل، دبّر حالك لحد الميناء بحيث لا يراك خفر السواحل، وإذا وصلت إلى هناك يصبح كل شيء سهلا. فالميناء كبير وواسع ولن ينتبه إليك أحد، انتظرني عند البوابة رقم (خمستعشر)، ستجد الرقم مكتوبا عليها بخط عريض، وأنا بعد نزولي من السفينة سوف أدبّرك مع واحد ابن عرب، هه! شو رأيك؟!

بضعة أسابيع قضاها """"مثنى"""" متخفٍّ في سفينة الشحن تلك مثل فأر، والآن ها هو في هذا الفجر الشتوي يواجه مصيره الذي لم يتخيله أبداً.

- والآن عليك المغادرة بسرعة، المسافة لم تعد بعيدة.

- يعني هذا هو كل كلامك؟!

لم يرد "جورج" بوجهه المتورم من شدة الغيظ، بينما الوقت كان لا يزال ملغماً بالظلام، وكتل الثلج التي تشكلت سريعاً تسبح في الماء مثل حيتان خائفة، والمدينة لا تزال تغط في نومها الوثني.

كانت مغامرة شديدة الخطر فإذا لم تقتله برودة الماء فقد تدهمه كتل الثلج، لم يكن أمامه أي خيار، كان في مؤخرة السفينة وليس أمامه سوى الاستسلام لحكم الظروف، لم يكن مع "مثنى" ما يخاف عليه، وقبل أن يقذف بنفسه إلى الماء

- هل ترى ذلك الضوء؟

وأشار بيده إلى البعيد.

- نعم أراه!

- ليكن هدفك الوصول إليه، وسأكون هناك قرابة العاشرة والنصف تقريباً، أوكيه يا بطل؟!

- إذا عشت!

قالها مستسلماً واستعد للغوص في المجهول، تتقاذفه المخاوف والوساوس، ولو لم يكن من طبعه التحدي، لرفض الخطة المائية هذه من أصلها، ولفضَّل السجن على ما يدعوه إليه السوري.

- صدقني يا "مثنى"! لولا أننا سنتعرض لمتاعب الله وحده يعلمهـا، مـا تركتك تخوض هذه التجربـة! وعـلى كـلٍّ المياه آمنـة، فـلا سـمك قـرش ولا يحزنون، بس شد حيلك!

تعانقا بفتـور، واسـتعد "مثنـى"، وقبـل التحليـق باتجاه المـاء تداركـه "جورج".

- خذ اشرب هذه!

مناولاً إياه قارورة صغيرة.

- خمرة؟! ألا ترى أنني مقدم على حياة أو مـوت، وتريـدني أن أقابـل ربي سكراناً يا شرموط!

- خذ اشرب بدون كلام فاضي! يعني هذه عيشة واحدة نعيـشها، اشرب حبيب قلبي، هذا سوف يساعدك ويدفي جسمك.

- على رأيك!

أخذها منه وأتى على محتواها في جرعة واحدة، واتجه إلى قدره صامتاً بعد أن أطلق تجشؤاً حاداً، ينبض قلبه بين أضلعه مثـل فـرخ صـغير، ومـن ارتفـاع شاهق قذف بنفسه في الفراغ، مطلقاً صرخة عظيمة لم يسمعها أحد.

فصل لمحة من حياة سابقة غير جديرة بالذكر أو الإخبار

كنت أحس بالموت يدب في أوصالي. "يا لي من غبي! لقد مضغت كثيراً من القات دون أن أتناول طعاماً كافياً". شعور هائل بالغثيان يعصف بي، أوشكت معه على تقيؤ روحي.

تقلبت ذات اليمين وذات الشمال بحثاً عن نومٍ لا يجيء، والهاتف ينتصب أمامي مثل تمثال بوذي أخرس، والساعة تقارب الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، وصنعاء مدينة منسية ومهجورة ليلاً وكأنها خالية من السكان منذ بدء الخليقة.

رفعت السماعة وضربت ستة أرقام متفرقة، كانت أرقاماً ارتجالية، رنَّ التلفون في الجهة الأخرى وصمت حذر يلفني، كنت طيباً تلك الأيام، تشتعل النار في أوردتي كلما رأيت فتاة جميلة.

- ألو!

غمزت الصنارة؛ كان صوتاً أنثوياً دافئاً.

- ...!

لم أجب، كنت أنصت للصوت القادم لتوه من النوم.

- موش عيب تتصل في هذه الساعة لتزعج الناس النائمين!؟

- ...!

لم أرد مع أنني أحسست بصاحبة الصوت تدعوني إلى الكلام.

- ما دمت لا تريد الكلام لماذا اتصلت إذاً؟!

كان صوتها حنوناً فيه جرأة محببة.

- مساء الخير!

خرجت من فمي جافة مجهدة مرتعشة نوعاً ما، لكنني كنت أريد الاستماع إلى صوت أنثوي يسامرني في ليل الوحشة الطويل الذي يحاصرني بقسوة موجعة، وها قد وجدته في صدفة وكأنها مقدّرة.

- قل صباح الخير!

- صباح النور!

شجعتني على الثرثرة بصوتها العشريني كما خمّنتُ، وأنا رجل التخمينات الذي لا يجارى.

- مع أنها المرأة الأولى التي أسمع فيها صوتك إلاّ أنني أظن وكأنني قد سمعته من قبل.

طلعت الشمس ونحن ما زلنا في سهرتنا مثل صديقين قديمين، عرفت اسمها، وأعادت لي قليلاً من حيوية افتقدتها طويلاً. وهكذا بدأت المغامرة، أولاً: "وحشتني، لماذا لم تعد تتصل بي؟"، ثانياً "أريد أن أراك"، ثالثاً كان اللقاء، ثم عززناه بلقاءات، قُبلة خاطفة، ضمّة حنونة، عناق خائف، ونظرات مشبعة بالخجل.

فارعة القامة، عسلية العينين، سمراء مثل أغنية حب قديمة. كان حباً لذيذاً أفتقده في هذه الأرض. أحبتني المسكينة، وقد كنت وغداً كبيراً، وها أنا

الآن أتجه إلى أقصى الأرض. "لا تتركني! إن فعلتها أموت". أحرقت رسائلها، مزقت صورها، وغسلت رائحتها من جسدي وغطست في ماء غريب ليس له صاحب.

عندما أتذكر تلك الأيام أدرك كم كنت تافهاً؛ قات وخمر وصلاة ونساء وتصنع عملقة كاذبة.

وصلت إلى ديترويت ذات مساء، والوقت شتاء عجوز يلفظ أنفاسه بصرخات بيض تهمي على الأرض بحزن العالم أجمع. كان "عبدالله" قد مات وشبع موتا والدموع قد جفت، والحياة مستمرة في عجلتها المسرعة، لا تلتفت للبهائم المنسية أمثالنا.

مرت السنون وأنا مكاني معلق في هاوية النسيان مثل لعنة لم يسمع بها جنس بشر. أخطأت في أشياء كثيرة، لكن ما جدوى الاعتراف الآن!

كنت أتصعد في وحشتي وأزداد ضجراً مما حولي. وكثيراً ما كنت أقضي أياماً طويلة لا أغادر الجحر الذي يؤويني وجدَّتي لأبي، إلا لشراء القات، أو المشي دون هدف في شوارع صنعاء، التي كنت أشعر بخصومتها لي.

في تلك الأيام غزتنا جحافل هائلة من السيارات الفارهة، يقودها أعداء الأمس أصدقاء اليوم. كانت الأمور تبدو كما لو أنها ضحكاً على الذقون؛ ناس يرفلون في نعيم فاحش، وآخرون -وهم الأغلبية- يأكلون روث المواشي. للحظات كنت أشعر بالجنون يساورني، يوشوش في أذني سيرة الفناء والركض عارياً في الشوارع.

ما كنت أراه ما هو في حقيقته إلا ازدواج لا يصدق بين ما نسمعه وما نراه، والخوف ينمو داخلي مثل جنين؛ ثمة شيء سيحدث، ثمة كارثة تتربص

بأعناقنا، هل هذا فعلاً هو وطني، وهذه بلادي، وهؤلاء البؤساء الذين تمزقهم الفاقة شر ممزق ناسي وأهلي؟!

كانت الفتنة مومس لا أسنان لها، تابت وصارت قوادة مهلكة تسير في الأسواق ولها عُبَّاد ومريدون وأتباع.

"أن تكون في صفنا فأنت في أمان". قاومت، وانتصرت بخروجي سالماً بعقلي وبصوتي. "وإما فستأكل من القمامة"، وقد أكلنا منها وأشبعنا البطون، ورأيناهم يقتلون بعضهم في الشوارع.

كانت موجة الثأر تتقدم من جديد، لم تستطع فلاشات الصحافة ولا نفاق الجرائد أن تمحوها من صدورهم وصدورنا وصدور النساء اللواتي كُنَّ يبعن أجسادهن من أجل رغيف ضنين.

كان الرفض شعاري، رفض الزيف والكذب، رفض القتلة في مسوحهم النبوية الجديدة، الذين لم يكتفوا بذبحنا في السابق، بل بدؤوا في كشف ماضيهم المستور، ماضيهم الملطخ بالدم.

كنت قد هربت إلى وراء البحر، لكن روائحهم كانت تصلني. كنت مثل مجذوم نُفي إلى أرض لا يصلها كائن حي، ونُسيت هناك. اختلفوا كل الاختلافات، ودقوا طبول الحرب، ووصلوا بها إلى آخر الشوط.

طعنوا الوطن الذي كنت أتخيله شيخا وقورا كثير الهموم لا يلقي له أحد بالا؛ طعنة كادت أن تودي به. وحينما رأيته، هذا الوطن، بعد الحرب، مكسوراً ينزف دمه، بكيت واستسلمت لمصيري، بعدما انطفأت آخر نجمة لبلادي في ذاكرتي.

فصل المأتم والأصحاب الذين بكوا ثلجاً وأحجاراً وحكايا لا تُقال إلاّ رمزاً

- مات "عبدالله"، وجد مقتولاً الليلة الماضية!!

صوت الأمّ يحتوي الجثمان العملاق الأسمر الساكن قسراً والمطرز بالطلقات. "خلوني أبكي على كبدي". صمت شاحب يلف المستشفى الكبير. وحدها الأمّ تنوح بين يدي الذي قبّلها الليلة الفائتة: "أي حاجة تريدينها يا أماه قبل عودتي من العمل، خبريني عنها بالتلفون وسأحضرها معي"، ولكنه عاد جثة هامدة!

هُنا أشعل معاركه مع أقرانه الصغار قبل بضعة أعوام. وفي ذلك السرير في فندق بعيد ألهبها، تلك الفتاة الشقراء، من جحيم الصحارى التي كانت تسكنه. وفي ذلك المسجد بكى بين يدي الله جنونه الغليظ الأفعال والوقائع. وها هي أمه وحدها من تبكيه بحرقة الفقد ولوعة اليأس من عودته.

كانت جنازة مهيبة تليق بقتيل شاب لن يداعب "وداد" مرة ثانية، ولن يشتري لها فساتين العيد. كان مغمض العينين في أبديته الراهنة مثل نائم سيستيقظ بعد قليل، عارياً إلاّ من طلقات تسكنه بوداعة وكأنها خلقت معه قبل اثنتين وعشرين سنة.

المرضات كُنَّ يمسكن الأم الثكلى بكل ما أُوتين من قوة تـدربن عليهـا طويلاً، وهي تهوي على كبدها المسجَّى فوق لوح خشبي بارد في مشرحة تعـج بالموتى، نائحة بأعلى صوت تمتلكـه أُم "يـا ولـدي ولـداه! أخـذوك مني يـا "عبدالله"! قتلوك يا عيون امك...!!".

بكت المرضات، مع أنهن لم يكن يفقهن قولها، بكى الأقربـاء والإخـوة والأخوات، بكت كل عين رأته أو سمعت عنه، بكت على زين الشباب الـذي ما تخاذل قط عن مساعدة من يحتاج العون أو المساعدة.

كان الأب خرافة هائلة من صبر، يكبله صمت عارم. "ما أحببتك أبـداً يا أمريكا، وها أنت تسلبين مني الغالي"، كان الألم ينهشه والذاكرة عينا جاريـة لا تتوقف عن الفوران الجارح. في تلك الليلة البعيدة انتظر "عبـدالله" ليـسأله لماذا تأخر عن العودة إلى البيت. وفي مرة انهال عليه ضرباً لأنه ضبطه يـدخن، لم يقاومه ولا قال مرة في وجهه لا.

جامد الوجه، وحدهما عيناه كانتا طليقتـين تـسحان الـدموع في صـمت محزون ومكدود، وكأنه ما عرف قيمة البكاء إلاّ في تلك اللحظات التي ما تخيل قط أنه سيعيشها.

الموكب طويل، أرتال من السيارات وعشرات المشيعين يـرافقهم بيـاض الشتاء، كانوا معفّرين ببياض الثلج الهش، يبدون مثل رجال من ثلـج يمـشون على أقدام حجرية تمضي بهم إلى نهاية الأبد.

شمس "جُبَنْ" أشرقت كما هي عادتها كل صباح، لكن شروقهـا كـان باهتاً هذه المرة، وفتاة يانعة تبكي حبيبها، تبكـي زوجهـا القتيـل. وثمـة طفلـة صغيرة تراقب المشهد في دهشة، لا تدري لمـاذا تبكـي النـساء. "قتلـوا بابـا يـا "وداد"! مات "عبدالله" يا "وداد"! ويلي عليه! من لنا بعده!!؟".

كل شيء فقد لونه، واختلطت الأشياء ببعضها بشكل لا طاقة لمخلوق بتفسيرها، الألوان في الدموع في الثلج في البرد القارس والريح التي تشوي الوجوه. ثلاث ساعات من السير المرير وانتظار مراسم الدفن، كان الناس يزحفون وكأنه يوم الحشر.

عادت الأم إلى بيتها يضج دمها الفائر بثلاث حقن مهدئة تبرّك جملا؛ لكنها ما هدأت، لكنها ما سكنت، لكنها ما زارها سلطان النوم، تبكي الذي لن يعود أبداً.

أظلم "دكس"(*) مع أنه لم يكن القتيل الأول. تقرير رجال الشرطة قال إن ثمة معركة ضارية وقعت، "ذلك الفتى لم يمت إلا واقفاً".

الأكُفُّ تصافح الأب المكلوم في توالٍ رتيب، وشيخ المسجد يذكّر بالموت وسنته الأبدية.

حمله الأصدقاء في نعشه دامعي الأعين، يرتدون معاطفهم الواقية من الثلج، ومع ذلك كان البرد قد عشعش دواخلهم، كان صقيعاً مروعاً، وكان وجه "عبدالله"، يحيط بالجميع من مكانه العالي. " كيف مات؟! من الذي قتله؟!". تساؤلات كثيرة برقت دون إجابة.

الساعات مرت بطيئة، شديدة الحزن، وكأن الوقت فقد قريباً له. "أماه! هل اتصل علي ابن عمي من اليمن يحدد موعد وصوله؟!". سأل "عبدالله" والدته عن القريب الموعود الوصول. وعندما وصل ذلك القريب، كان "عبدالله" قد غدا ذكرى موجعة.

(*) دكس: حي في مدينة ديربورن بولاية ميتشجان تسكنه غالبية من المهاجرين اليمنيين.

رفعوه، ذلك النعش، أبوه إخوته أقرباؤه، أصحابه، وتسابقت الأكـفّ لِلمسه. أوصلوه برفق إلى عالمه الآخر. ارتفعت الأصوات بالبكاء. "اذكروا الله يا جماعة!".

"عبدالله" يوشك على المغادرة في رحلة أخيرة لا عودة منها، وَسَّدوه لَحْده الخرساني، وقبل ذلك كشفوا عن وجهه؛ كان يبدو مطمئناً صـادقاً كـما تقتـضيه ضرورة الموت. نثروا بعض التراب المبلول على جبينه. أعادوا تغطية وجهه بكفنه الأبيض. وبصمت وبحسرة أهالوا عليه التراب ومضوا باكين، تاركين للديدان رفيقهم السبّاق إلى الفناء؛ كان سبَّاقاً في كل شيء، حتى في الموت كـان أولهـم، لم يكن يُجارى في سطوته وفي طيبته وفي إيقاعه بالصبايا.

في تلك العصرية صار "عبدالله" ذكرى حزينة، مجرد نسمة زكية مـرت سريعاً في سماء أحبته وغاب.

امتلأ المقهى بالرواد واندمج الناس في لعب الورق. حيـنما أهـلَّ مغـرب ذلك اليوم كان "عبدالله" وحده من مات، ووحده من تُرك في حفرته البـاردة، استعداداً لوحدة أبدية لن يزوره فيها أحد.

فصل حكاية "مثنى" الطويلة جداً جداً جداً جدا

– لما كانت حياتنا لا تُطاق في تلك القرية النائية، فقرا وجوعا وأمراضا، سافرت إلى عدن، قلت أجرب حظي في أرض الله الواسعة، حيث أخبرني بعض أبناء قريتي بوجود عالم آخر يسكنه بشر غيرنا، يعيشون في قصور وشوارعهم نظيفة، وحياتهم سهلة، يأكلون ويشربون ويتزاوجون دون مواجع أو منغصات.

كان "حنّا" يستمع إلى "مثنى" غير مصدق أن هناك شعباً مدفوناً وراء رمال النسيان، شعب يعيش خارج التاريخ لا يدري شيئاً عمّا حوله.

– مكثت في عدن ستة أشهر، ثم تسللت إلى إحدى السفن، حيث غادرنا إلى الحبشة؛ كانت أولِ مرة أغادر فيها بلادي، وأولِ مرة أركب فيها البحر. وبعد حوالي عشرة أيام وصلنا إلى مينا "مصوع"، بعد أن أمضينا قرابة الأسبوع في عرض البحر ننتظر ريحا مواتية تدفعنا إلى الجانب الآخر. وهناك قضيت ثلاث سنوات، كانت أجمل سنين العمر، قات ونساء سُمراً؛ كما لو كنتُ في الجنة. صحيح أن العمل كان مهلكاً، إلا أنني كنت أدبر نفسي في آخر الأسبوع بنزهة ما، بفتاة حبشية لا تقاوم و... و...!!

- هكذا بدون أوراق ثبوتية، أعني ذهبت إلى الحبشة بدون أوراق سفر

- ...!!

- أوراق، مستندات... كي يسمحوا لك بدخول الحبشة!

- والله يا صاحبي، لا أوراق ولا يحزنون، رشوة صغيرة في جيب أحد البحارة وأخرى لضابط الميناء، وتسهلت الأمور.

- يعني سافرت تهريب؟!!

- نعم، كل اليمنيين يفعلون ذلك.

- وكيف دبرت حالك هناك؟!

- عملت مع عمال يمنيين في الميناء، حمّالا. ومع أن العمل كان شاقاً، من الفجر وحتى المغرب، إلا أنني كنت قنوعاً، على الأقل يا آدمي كنت أعيش أفضل بكثير من العيشة في القرية.

- وأهلك؟!

- كنت أراسلهم برسائل وقليل من المال.

- وكيف وصلت على أمريكا؟!

- صدفة، لم أكن أقصد ذلك أبداً.

- كيف؟!

- في أحد الأيام وأثناء ما كنت أقوم بتفريغ أحد المراكب مع مجموعة من الحمالين، داهمتنا الشرطة، للبحث عن الذين ليس لهم إقامة أو يقيمون بطريقة غير رسمية، وقبضت على كل الحمالين تقريباً، ومن حسن حظي أنني كنت لا

أزال داخل المركب. وحينما شاهدت ما يجري من إحدى النوافذ، بقيت حيث كنت، حتى ينصرف رجال الشرطة. ولما كنت متعباً فقد نمت مكاني ولم أستيقظ إلا وأنا في عرض البحر.

- كيف تصرفت في تلك الورطة؟!

- لم أتصرف، فقد قبض عليَّ بحارة المركب وكادوا أن يقذفوا بي إلى الماء، ولولا أن القبطان منعهم من ذلك، لكنت أصبحت طعاماً لكلاب البحر، وبقيت بشرط أن أخدم لقاء لقمتي، وهكذا كان حتى وصلت إلى ليفربول.

- يخرب بيتك! وصلت إلى بريطانيا؟!

لو لم يكن "حنّا" بحاراً قديماً لظن الأمر هزلاً وتزجية وقت من قبل مريض عاش بمعجزة.

- وألمانيا وفرنسا أيضاً!

- احكي، احكي يا زلمة، والله قصتك هذه تصلح رواية!

- قضيت في ليفربول بضعة أيام، قامت بعدها حرب كبيرة أحرقت الأخضر واليابس.

- تعني قبل ست سنوات تقريباً!!

- أعتقد ذلك!

- ليش، كم صار لك بعيدا عن اليمن؟!

- ما أعرفه أني خرجت من القرية وأنا في الخامسة عشرة من عمري كما أظن.

- والآن كم عمرك؟!

– ما رأيك، خمس وعشرين.. مناسب!

– يعني عشر سنوات ما رجعت لأهلك؟!

– تقريباً، تزيد أو تنقص قليلاً.

كانت إجابة شعر بثقلها على قلبه، لأنه لم يكن يحسب للأيام حساباً، وها هي عشر سنوات قد انقضت ولم يحقق فيها شيئا يذكر.

كل يوم من أيام مرضه التي قضاها طريح الفراش كان يقص على "حنّا" العربي القادم من اللاذقية الذي آواه في مرضه حكايته المدهشة، ثلاثة أشهر وهو يكاد يقوى على السير إلى المرحاض، ولولا بنيته القوية لكان مات غرقاً في ذلك الفجر المشؤوم من شدة البرد.

– أخبرني! ماذا فعلت في ليفربول؟!

– لا شيء، كنت أحارب.

– تحارب!؟

– أيوه، أحارب.

– مع مَنْ؟!

– مع البريطانيين.

– كيف؟ فهّمني!

– أُستدعي ملاحو المركب الذي كنت أعمل عليه إلى الجندية، وكان اسمي ضمن قائمة المطلوبين للجيش، ولأن البحارة كانوا بريطانيين، ولأنني كنت معهم، فقد استدعوني إلى الميدان كمتطوع.

- وماذا فعلت؟

- ذهبت.

- إلى الجبهة؟!

- تماماً!

- وحاربت؟

- أربع سنوات كاملة محسوبة باليوم والدقيقة.

- ولم تمت!!

كان قد انقضى زمن طويل، لم يضحك فيه "مثنى" بملء شدقيه، لقد ضحك حتى أوجعه بطنه.

- لا، مُتُّ، بس خُلقت من جديد!

- يا زلمة قصدي ألم تجرح أو...؟!

- لم أصب حتى بخدش واحد، كثيرون سُحقوا بجواري مباشرة، أما أنا فلم أصب بشيء.

- سبحان الله! هه وبعدين؟

- توقفت الحرب وعدت إلى الضياع من جديد.

- وكيف وصلت إلى ألمانيا؟!

- برّاً هذه المرة.

- تهريب؟

- ككل مرة، اشتغلت عدة أشغال في المطاعم والبارات وبعض الوقت في الميناء كحمال وأخيراً قواد.

اتسعت عينّا "حنّا" من المفاجأة.

- قواد؟!

- أيوه، قواد (قالها ضاحكاً)؛ شح العمل وكدت أموت من الجوع، فتعرفت على عدة فتيات في نفس ظرفي، معوزات لا عمل لهن، فكنت الوسيط بينهن وبين زبائن المتعة من بحارة وغيرهم والحامي لهن في نفس الوقت من الأوغاد، وعندما تعبت من القوادة، فقد كنت أحس بالعار يجللني لكنه الجوع، على كل حال قفزت إلى سفينة متجهة إلى قبرص ومن هناك إلى مرسيليا بفرنسا حيث قضيت مدة وها أنا اليوم أمامك.

- مش معقول! كل هذا يطلع منك يا بو يمن!

تسعون يوماً قضاها "مثنى" طريح الفراش، بعدما أصيب ببرودة في الدم أوشكت على قتله، كان فيها "حنّا" نعم الصديق، بعد أن عرّفه "جورج" عليه، يتذكر تلك الليلة اللعينة والفجر السافل فيحمد الله على نجاته، فكل ما يذكره أنه قذف بنفسه في الفراغ وبالكاد وصل إلى الشاطئ، ثلاث ساعات سباحة "وابن الزانية قال إن المسافة فردة ذراع".

وصل إلى الرصيف منهكا يرتجف من شدة البرد، بحث عن مكان يأوي إليه بحثاً عن الدفء، وكان عليه أن يسير مسافة الساعة بين الحياة والموت، وأن يهرول مثل المجنون كي يدخل الدفء إلى جسده المثلوج، أدرك أنه ميت لا محالة، فالجو بارد وملابسه مبلولة، كان يتذكر أيام الحرب، فيشتد أزره "لم تقتلني القذائف طيلة أربع سنوات، وها أنا أوشك على الموت مثل كلب مبلول".

كان حبه للحياة هو ما جعله يحتمل سكاكين البرودة في دمه. وعندما شاهد لوحة تحمل الرقم ١٥، برك تحتها يرتجف مثل ورقة جافة أمام ريح عاصفة لها صوت القتل والتمزيق الوبيل، في انتظار "نائك أمه، جورج، ابن الحرام".

كانت الشمس قد أشرقت باهتة تحجبها سحب كثيفة. وفي تمام العاشرة والنصف هبط "جورج" وما كاد يشاهد "مثنى" في حالته تلك حتى هرع إليه مسرعاً. لا يدرك بعدها كيف وصل إلى شقة "حنّا"، كل ما يتذكره بالضبط أنه قبل أن يمد يده بالمصافحة سقط مغشياً عليه.

فصل يوم هبطت "مريكن"(*) منسياً لا تسأل عني حتى الكلاب

(*) في الأصل أمريكا، لكن المهاجرين اليمنيين القدامى كانوا ينطقونها بتلك التسمية.

وأخيراً هبطتُ في مطار ديترويت والثلج ينهمر خفيفاً محايداً مثل شجن قديم لا يأبه لسماعه كائن حي ولم يعد يستمع إليه أحد أو ذي روح عاقلة أو مجنونة، بعد ضياع سبع عشرة ساعة في مطار بروكسل، وخمس ساعات في مطار نيويورك، وكنت وحدي كمن يساق إلى هاوية سحيقة لا قعر لها، مضطرب المشاعر، يعصف بي توجسٌ مريع؛ ما الذي سأفعله في هذه الجزيرة الهائلة؟! أي اتجاه سأسلك؟! وأي طريق قُدّر عليَّ السير فيها؟!

أخذت سيارة أجرة وتوجهت بها إلى عنوان أحد الأقارب. كان الوقت بعد منتصف الليل، ومن حسن حظي أن سائق السيارة كان عربياً من المغرب، كما أخبرني لاحقاً دون أدنى اهتمام مني بذلك.

كنت صامتاً مشحونا بالهموم، وحيداً إلاَّ من علبة دخان وطنية أحضرتها معي من صنعاء، ألتهم لفائفها التهاماً. وكما هي عادة سائقي الأجرة فقد بادرني السائق بالكلام

– ابن عرب؟!

– أيوه.

– تشرفنا!

- حيّاك الله!

- من أين؟!

- من اليمن.

- من الشمال أم من الجنوب؟!

استفزني السؤال، واستفزتني بلادة السائق؛ أمن المعقول وهو العربي كما يقول، لم يسمع بوحدة الشطرين اليمنيين بعد؟! تلك الوحدة التي آمنت بها ومازلت، على الرغم من أنها لا تعرف أمثالي.

- لم نعد دولتين كما في السابق، ولم نعد شمالاً أو جنوباً، بل بلداً واحداً يا أخي.

- خير إن شاء الله! شو صار؟! تحاربتم من جديد؟!

"يبدو أن التاريخ السيئ يحيق بأهله" قلتها لنفسي متمنياً أن يصمت.

- لا، توحدنا!

قصدت أن تخرج بحنق، تعبيراً عن ضيقي من جهله.

- صحيح؟! ألف ألف مبروك! شعب اليمن يستحق كل خير.

فرحته التي أحسستها تخرج منه صادقة أنستني ضيقي وتبرمي من وضعي، ومع ذلك وددت لو أنه يصمت.

- متى صار ذلك؟!

لم أرد عليه وتظاهرت بمراقبة الطريق المكسو بثوب الثلج المشع بحزن سحيق تحت ذبالة القمر الباردة، كل شيء أمامي كان يغطيه شعر الشتاء

الأبيض والليل باسط ظله على المدى.

- كم المسافة إلى ديربورن؟!

سألته لكي أقطع عنه استرساله في طرح الأسئلة؛ كنت في حاجة شديدة إلى الهدوء، فقد أخذ مني التعب والإجهاد كل مأخذ. ويبدو أنه قد فهم مقصدي، فركن إلى السكوت سريعاً ليُفهمني مدى أسفه إن كان قد أزعجني.

- نصف ساعة تقريباً.

أخذت السيارة تقطع الطريق، ونحن صامتان، حتى وصلنا إلى باب منزل قريبي. يا الله! لقد كان نفس الرقم المكتوب في الورقة التي معي مثبتاً بجوار الباب، رغم بعد المسافة وتشابك البيوت والشوارع إلاّ أنني وصلت إلى نفس المكان المطلوب، لقد كنت في بعض الأحيان أتوه في شوارع صنعاء القديمة مع أنني أسكنها منذ طفولتي.

هؤلاء القوم جديرون فعلاً بحسدنا، نحن المتكئين على جدران واهية كانت تستند ذات يوم إلى تاريخ قيل إنه مجيد؛ ليس لأنني وجدت البيت بسهولة لم أتوقعها، بل لأنهم يستحقون الحسد لأشياء كثيرة، ومنها الدقة في وضع الأرقام على كل شيء: البيوت، السيارات، الأقمار الفضائية، وحتى على مؤخرات ممثلات البورنو.

كان السائق يحاول الاستفسار عن بعض الأمور في بلدي، لكنني كنت أرد عليه باقتضاب دون أن التفت إليه، لقد عاملته بصلافة ممجوجة، فقد كنت مثل سكران تائه لا يدري أين هو أو إلى أي جحيم سيذهب.

يحزُّ في نفسي أنني ومنذ عرفت نفسي في هجرة دائمة، داخل نفسي وداخل بلادي، وحدي مثل شيطان ليس له رب يكله برحمة ما.

حملت حقيبتي الوحيدة وأردت دفع الأجرة.

- لا، قسماً بالله! ولو، إحنا إخوة.

صُعقت، تلعثمت؛ هذا الرجل الذي عاملته بعجرفة غير مبررة، ولم تكن من طبعي، كان أكرم مني، فيما بعد سأدرك أنه حقاً رجل شهم؛ ففي هذه الأرض لا أحد يعطي دون مقابل حتى ولو كان من الأقرباء.

- لكن...!

كنت أتصبب عرقاً بارداً يشلني خجل مهول.

- أعرف أنها المرة الأولى التي تصل فيها إلى أمريكا، كلنا كنا مثلك مضطربين وخائفين، لكن ربك لا ينسى أحداً، ثم أنك أفرحتني بوحدة اليمن لذلك فلن آخذ منك سنتاً واحداً.

- يا رجل!!!

- أبداً والله! تصبح على خير والله يوفقك!

وذهب تاركاً إياي في ذهول. لم أعرف اسمه أو من أي مدينة في المغرب هو. كم شعرت بالندم لحماقتي! "يا حيوان! (خاطبت نفسي باحتقار) ما الذي دهاك؟!"، مرت الدقائق طويلة وأنا جامد مكاني مثل صنم غطاه الصقيع.

قرصني البرد، فتحاملت على نفسي وتوجهت إلى بيت القريب الذي لم يستقبلني في المطار، رغم معرفته المسبقة بموعد الرحلة وقدوم الطائرة. قرعت الباب مرات ومرات كثيرة حتى ظننت أنني أخطأت العنوان، وأخيراً وبعد أن أوشكت على الانصراف لا أدري إلى أين سمعت صوتاً مكتوماً يأتي من الداخل.

- مَنْ؟!

- علي.

- مَنْ علي هذا؟!

- أحرقتني جملته الاستفسارية البليدة تلك.

- قريبك يا بني آدم!

فتح الباب، لم ترتسم على وجهه أي أمارة للترحيب.

- متى وصلت؟!

- قبل قليل. هل تسمح لي بالدخول!

- طبعاً طبعاً، تفضل! لقد نسيت أن أدعوك إلى ذلك.

تلجلج في كلامه وأطلق ضحكة محرجة ليداري ضيقه من وصولي كما يبدو.

- سامحني يا ابن العم! كنت أظن أنك ستصل غداً، ولهذا لم أكن في استقبالك، لم يعد أحد في هذه الأيام يصدق مواعيد الطائرات.

لم أنبس بكلمة، فقد قصدت أن أتركه يغرق في حرجه. تعانقنا عناقاً بارداً لزوم المجاملة وضرورة اللقاء البارد الذي كان لا يتمناه.

- عشاء؟ لعلك جائع!

- فقط أريد أن أنام.

فصل "مثنى" أو "مارتن" الإيطالي وما جرى وما صار أو سيصير

مشطه الإيطالي من رأسه حتى أخمص قدميـه. وجهـه الحليـق الـشارب والأنف المعقوف الباعث على الضحك، والسيجارة التي لا تفارق فمه، كانت علامات ثابتة لم ينسها "مثنى" إلى أن قُتل ذات ليل بعيـد لم يـأت بعـد. اسـمه "مستر لويجي".

– لقبي "المجنون"، لأنني لا أقبل التهاون في أي شيء مهـما كـان تافهـاً، فسمعتنا في هذا المطعم هي رأس مالنا.

بدا وكأنه خلق لصنع القـرارات الهامـة، ثـم إنـه غمـزه مبتـسماً نـصف ابتسامة أظهرت أسناناً أكلها النيكوتين.

– لكنني طيب مع العامل النشيط وأكره المكر.

نصف ما قاله "لويجي" فهمه "مثنى"، والنصف الباقي تطوع "حنّا" لترجمته، فقد كانت لكنة "لويجي" الإيطالية لا تطاق. بعد ذلك ودعه "حنّا" على أمل أن يلقاه في المساء.

– والآن تعال (قال "لويجي") سأريك المكان الذي ستباشر فيه عملك!

كانت قاعة المطعم الرئيسية مزدانة بلوحات لمناظر من مدن إيطالية وثمة موسيقى تنبعث من مكان ما.

- مبدئياً ستعمل في غسل الصحون وأدوات المطبخ، وسنرى لاحقاً ما الذي بإمكانك القيام به، كل هذا متوقف عليك، نشاطك يرفعك وكسلك يؤدي بك مباشرة إلى الباب مفهوم.

هز "مثنى" رأسه علامة الفهم وهو يتلفت يمنة ويسرة في أرجاء المطعم الذي تفوح منه روائح الثوم والنبيذ والصلصة.

- هذا "كالفينو" الطباخ وهذه مساعدته "جينا"، زوجتي!

ابتسم لهما بود ولم ينس أن يمشط "جينا" بنظرة سريعة.

- أما البقية فعليك التعرف عليهم بنفسك. نحن هنا عائلة واحدة وصدقني لن تتضايق معنا.

تركه بجوار مغطس وضعت فيه أدوات طبخ مستخدمة وذهب، بينما أعطته "جينا" مريلة بيضاء وقفازين بلاستيكيين.

- هيا إلى العمل أيها الأمير!

كانت تحدق فيه باشتهاء، بصدرها العظيم، وشفتيها الشهوانيتين.

- أحب لون شعرك ووجهك! ما اسمك؟!

- "مثنى".

- ماذا!!؟ يبدو معقداً اسمك العربي هذا، ما رأيك في اسم آخر؟

لم يرد، وقف صامتاً، بينما بدأت وكأنها تبحث عن اسم مناسب.

- آ... آ... ما رأيك بـ"مارتن"؟!

- لا بأس، مادمت أنتِ من اختاره لي.

ابتسمت ابتسامة ذات مغزى خبرهُ طويلاً مع النساء.

جسدها ريان لوّحته شمس صقلية. وفي عينيها شبق صارخ وظمأ يفت قلب الصخر. وصدرها يكفي دعامة أبدية لبرج "بيزا".

قرصته على ثديه ومضت وهي تقهقه، بينما شدته سرعة المبادرة "تبدو محترفة".

بدأ العمل بنشاط، كان يبدو مسلياً في يومه الأول، مر الوقت سريعاً، عشرات الصحون والأواني المختلفة الأحجام قام بتنظيفها، وفي كل مرة تأتي فيها "جينا" أو تمر بالقرب منه، كانت تلحسه بنظراتها، كما لو أنها تلحس قطعة من الشوكولاتة. لم يحاول أن يرفع بصره إليها أثناء تحديقها فيه خشية زوجها أولاً، وثانياً ليتركها تتلوع حتى تأتيه راكعة؛ كان قد خبر الأوربيات في رحلاته، لكنه لم يذق أجساد النساء الإيطاليات بعد.

طوله الفارع بامتلاء، وسواد عينيه، وشعره الفاحم، وسمرته اللذيذة، كانت رأسماله في عالم النساء الإيطاليات، ذلك العالم الذي سيدخله رويداً رويداً، ابتداءً بـ"جينا" نفسها وفي نفس سرير الزوجية دون علم "لويجي" المجنون، مروراً بنساء كثيرات، وصولاً إلى زوجة "بتينو" الصغير، الرجل الذي سيتعرف عليه بواسطة "لويجي"، ويصبح أحد رجاله والذي سيلقى مصرعه على يديه.

الحاكم الفعلي لعموم العصابات الإيطالية، ليس في بروكلين وحسب، بل في نيويورك الكبرى كلها، المدينة التي تنام كل ليلة على أنين عشرات الجثث التي يستفعل بها الموت، والرجل الذي سيقتله شر قتلة، حيث سيعمد إلى قطع عضوه وخصيتيه أولاً، ثم يتم تقطيعه إرباً، ويرمي لحمه للكلاب ويتم حرق ما تبقى منه، بحيث سيختفي إلى الأبد، ولم يعرف بنهايته إلا حينما تم القبض

على "بتينو" الصغير وإلقاؤه في السجن مدى الحياة حتى أصابه الجنون، فأخذ يهذي بـ"مثنى" العربي وكيف أنه قتله قتلةً لم يُقتلها أحد من أبناء حواء.

مر اليوم الأول سريعاً، قام فيه "مثنى" بغسل كل الصحون والقدور، وأيضاً نظف الحمامات ومسح بلاط الأرض، وكذلك قام بإلقاء القمامة. "مغسل صحون آخر العمر! بشرفي إن الحرب أهون من هذه القذارة".

كان يحدث نفسه متحسراً على عمره، لا يدري إلى أين يذهب به؛ "لكن ما العمل يا "مثنى"؟! ثلاثة أشهر وأنت ضيف قسري على "حنّا" رغم حالته المتواضعة!".

في الحادية عشرة والنصف ليلاً، عاد "حنّا" لأخذه من المطعم. كان فصل الربيع قد أهلّ، فبدأ الليل منعشاً رغم أن السماء كانت تمطر بهدوء كما لو أنها تغني.

- في هذه البلاد يا "مثنى" الاعتماد على النفس رأس كل فضيلة، لأنها بلاد لا ترحم.

أخذ "حنّا" يكيل له النصائح، من واقع تجربته، مثل أخ، وقد كان كذلك فعلاً، فمن غير "حنّا" افتقده وبكى عليه حينما أصبح طعاماً للكلاب، ورماداً تذروه الرياح؟! بل ومن غير "حنّا" نفسه من لقي مصرعه، عندما هدد "لويجي" المجنون بتبليغ البوليس عن اختفائه إن لم يخبره بالحقيقة، الحقيقة التي تقول إن "لويجي" كان يعلم أن "مثنى" يُعلِّم "كارولين" زوجة "بتينو" الصغير كيف ترفع ساقيها جيداً وبثبات إلى الأعلى دون أن يعلم أن "جينا" قد سبقتها.

"حنّا"، صاحب الكشك الصغير لبيع السجائر وأوراق اليانصيب والخردوات، على الناصية المقابلة لمطعم الأسبجاتي اللذيذة الذي يمتلكه "لويجي"، "حنّا" وحده العربي الوحيد من كان "مثنى" يعرفه في نيويورك بعد عودة جورج إلى فرنسا والذي ما انفك ينصحه:

– ولو يا بو يمن، نحن نظل عرباً، وليس لنا في الغربة سوى بعضنا، لقد هاجرت بعد أن فقدت كل شيء في الشام، العائلة والمال والوطن وهربت إلى هنا، ضياع طوال اليوم وعناء، وآخر الليل قارورة خمر وامرأة ألتقطها من عرض الطريق، وهكذا دواليك، كُس أمها عيشة! وأنت بعدك صغير وخايف عليك، الناس هنا لا ترحم، دخيلك أولاد حرام!

كان يتحدث من قلبه. و"مثنى"، كما هي عادته، يلزم الصمت، لا يتكلم كثيراً، فقط يراقب الأشياء كشخص محايد، بعينيه السوداوين، أحد أسباب وسامته التي أودت به وقتلته بين أثداء الإيطاليات، اللواتي يسعين إلى الرجال المكتملي الفحولة ولو على جثث سكان نيويورك جميعاً. لكنه كان يشعر بالاطمئنان بجوار السوري الأصلع، ذي التاسعة والثلاثين من العمر، الذي لا يزال يلعن العالم والنساء الخائنات وفرنسا ونفسه والبحر...

هذا الشخص المحبوب إلى قلبه مثل أب أو أخ، من قُتل بسببه بعد أقل من شهر على قتلته المروعة، الفرق أن أحدهما أكلته النار والكلاب، والآخر ذُبح ذبحاً من الأذن إلى الأذن.

– لا تأمن إيطاليًّا على حياتك، ولا تُري زنجياً نقودك!

كانا يواصلان سيرهما باتجاه شقتهما بجوار محطة قطارات "باراهول" في قلب بروكلين.

- لا تقلق يا "حنّا"! إن شاء الله لن يكون إلاَّ الخير.

وصلا إلى تلك الشقة العالية التي بالكاد تتسع لهما. لم ينسيا أن يبتاعا لهما صندوق بيرة مهربة لزوم السهرة من بائع غواتيميلي بعيداً عن أعين الشرطة. وحينها تعتع السكر "حنّا" واحمرَّت صلعته وأرنبة أنفه، قال كلمته التي حاول أن يقولها لـ"مثنى" في طريق العودة لكنه نسيها

- إذا أردت السلامة إياك والنساء الإيطاليات، خصوصاً المتزوجات، فهؤلاء الإيطاليون مثلنا في غيرتهم على نسائهم، بل إن الواحد منهم قد يقدم مؤخرته لك لكن إياك أن تلمس امرأته، إن القتل عندهم في هذه الحالة يكون هو الحل الأمثل والسريع الذي لا تراجع عنه للدفاع عن الشرف مهما كان الثمن، قالها وغط سريعاً في النوم.

في تلك الليلة تذكر "مثنى" قريته وأمه وأباه وإخوته، وتذكر السنين الطوال التي مرت سريعاً وكأنها لم تكن. "عشر سنوات يا مثنى، لا مال ولا مستقبل ولا يحزنون، يا ضيعة العمر يا مثنى! يا ضيعة الرجال!".

يحدث نفسه وشجن عميق يدب في أعماق روحه المتعبة، كان شجناً شفيفاً شديد الوجع، يشده بتلابيب وجدانه المحزون.

لقد خاض معارك دامية، ورأى مئات الجثث، لم يكن يستطيع نسيان أنها لأُناس مثله، أُناس كانوا يسيرون على أقدامهم ويضحكون ويبكون؛ لكنه ما بكى ولا سقطت له دمعه، "فما خطبك في هذه الليلة بالذات تود البُكاء يا "مثنى وأنت الذي ما بكيت؟!".

شعور طاغٍ يهصر أضلاعه، شعور الوحدة والضياع، رمق "حنّا" وهو يغطُّ في نومه، يسيل اللعاب من شدقه، لشدة ما أفرط في الشراب، فازداد حباً

وتقديراً له، هذا العربي المسيحي، الذي آواه ورحب به في بيته دون تردُّد، كما لو كان قريباً له أو صديقاً قديماً.

حنين صاعق اجتاحه لرؤية أمه، التي ودعها وهي تبكي وترجوه وتتوسل إليه ألاَّ يسافر. ترى هل أحس بقرب نهايته؟! هل أدرك خاتمته المفزعة التي لا مهرب منها؟!

"آه يا أماه! كم أنا مشتاق إليك!!"، خرجت من صدره مثل جمرة لا انطفاء لها. لم يتمالك نفسه، فانهار باكياً كما لو كان يبكي عمره وحماقته التي أودت به بغير قصد، بعد زمن قصير من بكائه، لأنه بعد تلك الليلة وبعد مضاجعته لـ"جينا" في الليلة التالية، وإلهابها بجنون الجبال والصحارى التي تسكنه، سينسى أهله ونفسه ولن يتذكرهم ثانية إلاَّ عندما يدهمه رجال "بتينو" الصغير، وفي عيونهم نية القتل وقيامهم بتمزيقه أمام ناظريه، دون أن يشفق عليه أو يسمع صراخه المرعب إنسان.

فصل مقاطع سريعة من حياة "عبدالله" القصيرة جداً مثل أغنية جبلية خانها الصدى

وهو في الإعدادية أرسل "عبدالله" رسالة إلى الرئيس الأمريكي "رونالد ريجان"

"السيد الرئيس

أنا طفل عربي من اليمن، تراهنت مع زملائي في المدرسة، بأنه يمكنني أن أتخاطب مع رئيس الولايات المتحدة، وأنا نشيط في المدرسة، وأنك رغم مشاغلك سوف تقوم بالرد على رسالتي هذه.

السيد الرئيس

أنا مواطن أمريكي بحكم الجنسية، لكن هذا لا يمنعني من حب بلدي الأم، وكذلك الإخلاص للأرض التي أعيش عليها. إننا العرب نحب السلام وندعو إليه. تقبل فائق الاحترام".

طبعا "عبدالله" لم يرسل خطابه باللغة الفصحى، ولكنني كما يبدو أعزي نفسي فيه كما لو كان يسمعني، وكاعتذار مني له على موته المبكر دون أن يقصد ذلك... مَنْ مثلك يا "عبدالله"؟!!

يرد الرئيس الأمريكي على "عبدالله"، مع صورة له مهداة إليه، ويشد

على يده، ويؤكد له أن السلام مطلب الإنسانية، وأنه وجيله من النشء سيحملون هذه المسؤولية، كما أنه تنبأ له بمستقبل باهر، كانت مجاملة رئاسية صرفة لم تحمِ "عبدالله" من القتل.

"عبدالله" يدخل المدرسة الثانوية وهو على أبواب الفتوة. كان شديد الذكاء ومتفوقا في دروسه، وأيضاً كثير العراك مع أقرانه، حتى أخضع المدرسة لهيبته. كان النجم الأول في كرة السلة، والأول في كثرة الإنذارات بفصله إن لم يوقف حروبه.

كان يعيش حياته كأي مراهق أمريكي، لكنه كان خدوماً وشديد الطيبة، وكان يهيئ نفسه من حيث لا يدري لموت سيأتيه بغتة، دون أن تتاح له الفرصة مرة ثانية لرؤية "وداد".

......

يسافر إلى "جُبَن" ليقضي فيها قرابة العام، وكأن فترته تلك كانت لوداع لا لقاء بعده مع زوجته وابنته، وبلاده التي أحبها بكل جوانحه، بلاده التي لا تدري عنه ولا عن أمثاله من قتلى النسيان شيئا.

"عبدالله" يعود إلى ديترويت، ويبحث له عن عمل ويظل المال هاجسه الدائم، يريد أن يكتفي، لكي يستقر بجوار "وداد" وأمها.

....

يرحل إلى كاليفورنيا، فتخاف عليه أمه من الزلازل التي تحدث هناك، فيعود إلى ميتشجان، حيث يتشاجر مع أحد زملائه، ويوشك على قتله عن طريق الخطأ. يحكم عليه بالحبس لمدة ثلاثة أشهر. يخرج بعدها أبيض الوجه مع أنه أسمر البشرة، كان ابيضاض الموت.

بلغ الثانية والعشرين من العمر وهو لا يدري من أين يبدأ حياته بالشكل الصحيح.

عندما وجد مقتولاً، في محطة البنزين التي كان يعمل فيها، كانت أسنانه تضغط على شفته السفلى بقوة وغضب، وأصابعه تمسك بمسدس خسر بعض طلقاته، وثمة دمعتان تحجرتا في عينيه.

"عبدالله" لم يُعطَ فرصة كافية كما ينبغي.

لقد قُتل قبل الأوان.

....

"عبدالله"! من قتلك؟!!

فصل بداية المواجع الطويلة إلى آخر نقطة من كتاب المرارات الكبير

لم أبقَ عند ذلك القريب أكثر من أسبوع، تعرفت فيها على "دكس"، حبسي الجديد، حي طويل يمتد من منطقة الجالية المكسيكية في بداية شارع "فرنر" الذي يبدأ من قلب وسط مدينة ديترويت، وينتهي أمام مسجد بُني في منتصف الثلاثينيات على نفقة أهل الخير، كنا نعيش في "جيتو" خاص بنا، "جيتو" التسكع وبائعي المخدرات الصغار والمجانين والعاطلين عن العمل.

في الأسبوع الثاني لوصولي وجدت عملاً في "واينـدات"، وهي مدينة صغيرة قريبة من "دكس"، مدينة هندية الأصل كان يسكنها هنود مسالمون، قبل أن تطالهم أيدي المحو الأبيض تقع على نهر ديترويت.

دخلت المطعم متوجساً بعض الشيء، لا أدري بالضبط ما هو عملي. استقبلني مديره الفلسطيني بودٍّ مبالغ فيه. كان المطعم يمتلكه شخص إيطالي قصير القامة، وسيم الوجه وخطه الشيب. عرفت عملي وبدأت في غسل الصحون. كان زملائي في العمل طيبين في معاملتهم، الطباخ "آلن" ومساعده "جريك" وعامل السلطة "بيل"، وصانعة الحلويات "نانسي" وغيرهم. وسرعان ما نمت الصداقة بيننا، أنا بلغتي المكسرة وهم بذكائهم في فهم ما أقول وأهذي به.

كنت أعود إلى شارعنا المنسي كمن يساق إلى حتفه، ما أحببت "دكس" قط. كنت أشعر أنني لست في أمريكا التي دوى صيتها في العالم، مجرد حي قذر مظلم تنبعث منه روائح الكبريت والزئبق والمواد الكيماوية السامة، القادمة من مصنع "فورد" الشامخ في آخر الشارع. كان حياً ليست له معايير محددة، حياً ممزقا بين ثقافتين متباينتين. كنت أشاهد خصوصاً في الصيف، الفتيان الصغار في تسكع دائم، أجدهم صباح مساء في المقهى، فتيانا لفظتهم المدارس واستقبلتهم الشوارع وأعمال الليل.

شكلوا عصاباتهم، عصابات للسطو، عصابات لبيع الممنوعات، عصابات لأي شيء؛ ما دام ذلك سيمدهم بالمال. "أليس لهم آباء يضبطونهم أو بيوت تؤويهم؟!".

طبعي الانطوائي لم يُعنّي على الاختلاط بمجتمعي الجديد. من العمل إلى غرفتي التي استأجرتها في فندق رخيص يعج بالعاطلين والعجزة والعاهرات. غرفتي الباردة شتاءً وصيفاً التي أعيش فيها مثل فأر وكأنّ قدري أن أظل أعيش وحيداً.

"دكس"، حيث يفنى العمر وتذوب الأيام مثل حبات من ملح شديد المرارة في كأس الحظوظ العمياء. قابلت أناسا قضوا سنين طوالاً ولم يعودوا إلى أوطانهم، لبنانيين، يمنيين، عراقيين، فلسطينيين، جزائريين، مصريين، سودانيين، ومجانين جنوا لا تدري كيف أو متى، كأنهم ولدوا هكذا، هذيان وحشي يمشي على قدمين.

ينقسم حي "دكس"، الذي يقطعه شارع يحمل نفس الاسم، إلى عدة شوارع خلفية. على يمين الشارع الرئيسي يقع شارعا "هالي" و"سلاينا"، حيث توجد في الأخير مدرسة ابتدائية. كذلك في جنوب غرب يمتد لسان

"رولو" و"أمزان" كشارعين سكنيين. بينما إلى اليسار توجد عدة شوارع، "فرني"، "بارني"، "كونتيكت"، وامتداد شارع "سلاينا" حيث يوجد المسجد ومحلات تجارية ومحطة للبنزين في قلب الحي. كما يوجد في قلب اليسار محل لبيع الخمور يمتلكه أحد قدامى اليمنيين، أضف إلى مطعم وصالون حلاقة ومغسلة ومحل لبيع الملابس وصيدلية.

"دكس"، الحي الذي سكنه الأمريكان منذ بداية القرن وحتى منتصفه، حتى توافد إليه المهاجرون العرب القادمون من لبنان وفلسطين واليمن.

خليط من أجناس وثقافات وأديان مختلفة. كان حياً للبارات والملاهي، إلى أن تسيَّده المسلمون وأخذوا يغيرون فيه شيئاً فشيئاً، خصوصاً منتصف السبعينيات أثناء الصحوة الدينية العارمة التي اجتاحت الجميع، ليتحول الحي بأكمله إلى حي عربي له صفاته التي تدل على ساكنيه العرب الذين احتلوه احتلالاً كاملاً، وخصوصاً اليمنيين الذي شدوا قبضتهم عليه بعد نزوح اللبنانيين إلى غرب وارن، لذلك لم يكن من المستغرب أن تجد المطاعم التي تقدم "العصيد" و"السلتة"(*).

إلى هناك وصلت وحططت رحالي، وفي هذا الحي بدأت حكايتي، بدأت حكاية أجيال متعاقبة تحترق بين لقمة العيش الضنينة والقتل والانسحاق اليومي المعتاد.

"دكس" حيث تجتمع المتناقضات، وحيث رأيت وسمعت عن عوالم وددت لو أنني ما رأيتها أبداً.

(*) "العصيد" و"السلتة": أكلتان شعبيتان في اليمن.

فصل عندما حلّ "عبدالله" "جُبَنْ" مدينة الملائكة والجن والأبالسة والشياطين

كان يسمع أنه من مدينة صغيرة في بلاده البعيدة، مدينة لا ترى على الخارطة بسهولة، اسمها "جُبَنْ". وكان يتشوق لزيارتها؛ تلك المدينة التي قيل إن الجن يسكنونها، وقد أحب أن يرى الجن بعينيه، ليرى كيف هم وكيف يعيشون؛ لقد صدّق بالفعل حكاية وجودهم هناك.

"لقد صرت رجلاً، وأريد أن أراك وقد تزوجت". قال الأب لولده الذي سيقتل ذات مساء بعد ثلاث سنوات ونصف من زواجه، في محطة بنزين، قبل منتصف الليل، بعد أن تدهمه قروش الليل الضالة. "موافق". كانت الموافقة لرؤية "جُبَنْ" أكثر منها للزواج، فهو لا يعدم النساء.

وعندما أطل على مدينة أجداده، كان ذلك بعد العشاء، رآها ساكنة من علٍ في واديها الفسيح، مدثرة بليل غامض، وكأن لا حياة فيها، لولا أنين النوافذ التي تخبر القادمين عن ثمة حياة تضج في البيوت بأضوائها الخافتة.

غطس في ظلامها، وسكن دار أبيه القديمة. كان ذلك منتصف صيف تلك السنة البعيدة، الفصل الذي سيأتي بعده شتاء سيشهد موته ذات يوم وتُطفأ فيه ذبالة عمره القصير.

تزوج من إحدى قريباته، وأمضى برفقتها عاماً كاملاً، قبل أن يعود إلى ديترويت للبحث عن عمل.

سنة كاملة قضاها في الخروج إلى الوديان صباحاً مع بعض رفاقه الجدد وبعض أقربائه، وتناول طعام الغداء ظهراً، ثم مضغ القات حتى المساء.

بهرته طبيعة المدينة السهلة المحاصرة بالجبال من كل جانب: "القلعة" و"القفل" من الشمال، و"القُرين" من جهة الجنوب، و"دامن" الذي يذكر بأسد رابض منذ أول الدهر من جهة الشرق، و"القندول" الجمل الحجري الهائل يسد المنفذ الغربي؛ ما بينها تجري الحياة في "جُبَنْ" كما هو مقدر لها.

كانت تعجبه نجوم الليالي وكثافتها، ولذلك كان يصعد كل ليلة إلى علية الدار لمراقبتها ومشاهدة الجبال الغامضة، مثل حراس خرافيين من صخر تحيط بالمدينة. لم يكن يشاهد مثل تلك النجوم في مساءات ديترويت المحاصرة بالنيونات وأعمدة الكهرباء المنتشرة في كل مكان.

في "جُبَنْ" أحس كما لو أنه عاد إلى ما قبل الكهرباء، خصوصاً في الليل، حينما كانت تنطفئ كهرباء المدنية في تمام الثانية عشرة ليلاً.

كان جبل "القفل"، المجاور لجبل "القلعة" من الشمال، يسحره بشموخه الصامت في الليالي المقمرة؛ شموخ صخري يحمل حكمة دهرية لا تنفد، وعنفوان لا تزلزله عاديات الطبيعة.

قضى ما تبقى من الصيف في استكشاف الجبال والمغاور والأحواض الصخرية المنحوتة فيها، لا يدري في أي زمن حفرت وبأي مقدرة فذة أنجزت.

"حدثنا عن مريكن يا عبدالله!". يسأله زملاء المقيل أن يحدثهم عن الأسطورة التي تصم الآذان، وعن الحلم الكبير الذي يود كل واحد منهم أن

يجرب حظه فيه. ولأنه قد ترعرع هناك في تلك الأرض البعيدة، فقد كان يحس بنوع من الحنين إليها، خصوصاً عند ما تأخذه سكرة القات، فيسهب في الوصف، وأصحابه مشدوهون لما يقول. "بنات وحرية وأعمال سهلة ومغامرات وأفلام وأرض ساحرة ونساء عاريات؛ هذه هي أمريكا". أحياناً كان يأخذه الندم، لأنه يغرر بأولئك الفتيان المتشوقين لشيء لم يروه ولم يخبروه؛ لكنه يواصل وصفه بلا مبالاة، فقد كان يقصد تسليتهم، وأيضاً كان هذا هو حلمه عن أمريكا، الحلم الذي لم ينل منه سوى القتل وعدة طلقات كانت هي كل نصيبه من كعكة الحلم الكبير.

حينما علم أصدقاؤه بنبأ مقتله بعد ثلاث سنوات ونصف بكوا عليه؛ ذلك الصديق الذي كان يضيق ذرعاً بالكذب والرياء وعلامات النفاق، ذلك الصديق المتأمرك المحب لمدينتهم ولطبيعتها، والفخور بتاريخها العظيم.

كانت القصص التي كان يرويها لهم تذهب بعقولهم عندما يقارنونها بواقعهم الجامد المعشعش في عيونهم وأرواحهم مثل ذرات من حديد صدئ. أحبوا فيه بساطته وتواضعه وشجاعته، فلم يكن يخشى أو يهاب أحداً، في ظل خصومات المدينة العقيمة التي لا تهمه ولا يعيرها أدنى اهتمام، ولذلك فلم يكن من المستغرب أن ينعته البعض بالكبر والتعالي. كان نفوره من مقايل النميمة إحدى العقبات التي حالت بينه وبين الاندماج في شللية المدينة التي كان ينفر منها، فقد كان يكره الخوض في الزعيق والتناحرات الكلامية المجانية والتي يسمونها نقاشات سياسية، أولئك الأميون الأغبياء، كما كان ينعتهم، لذلك فبيته كان ملجأه الذي يحميه من الترهات. وكان أشد ما يضايقه تقلب الوجوه ونفاق الألسن التي تحيط به طمعاً في مغنم منه وقد نغص عليه ذلك إجازته.

حبلت زوجته وأنجبت له بنتاً سمراء شديدة الشبه به، أسماها "وداد"، وقد ملكت عليه شغاف قلبه، تمنى معها ألاّ يفارقها أبداً، وأن يقضي العمر بجوارها وجوار والدتها الزوجة التي لم يطعم عفاف الحب وطهارته إلا معها؛ لكن التمني شيء والواقع شيء آخر، فقد نفدت نقوده وصرف كل ما معه من مال على قلته، فقبَّل زوجته وابنته وعاد إلى ديترويت بعد أن استدان ثمن تذكرة العودة.

عاد بحسرة حارقة تفري جوانحه لفراقه "وداد" وأمها. كان عليه أن يجد في البحث عن عمل يعول أسرته الصغيرة، فأبوه لن يصرف عليه مدى العمر. كانت حسرة موجعة تضج في قلبه، الذي ستباغته طلقة مجنونة وتسكته إلى الأبد. كان شديد التلهف، يحسب الساعات التي تفصله عن مدينة أمه وأبيه، حينما عزم على السفر إليها والزواج فيها، لكن خيبته كانت كبيرة، ولولا نزهاته وانشغاله بزواجه لكان عاد إلى ديترويت في شهره الأول، فقد أخافه الناس، أخافته صراعاتهم وتشاحنهم وتفرق كلمتهم، وتسلط الغريب الوضيع على رقابهم.

أعجبه صيف المدينة. كره بعض ناسها الذين يحرقهم حقد كظيم لا يدرون هم أنفسهم سبباً له. أما في الشتاء فقد كانت تتحول إلى مدينة جافة جرداء تنحرها الريح وأشباح الغبار. كانت مدينة لها خصوصيتها المتفردة في كل شيء، في البلاليع المكشوفة المنتشرة في كل مكان، وفي الأمراض التي تفتك بصغارها، وفي النساء المهجورات ينتظرن أحباءهن الذين يركضون في المنافي المنسية وراء لقمة العيش المرة...

مدينة يستفعل بها الموت والتذبذب والنميمة وحكايا "صَيَّاد"*، وخرافات الجدات الموشكات على الانقراض، مدينة سمتها التناقض، بين النبالة والخسة، الطيبة والمكر، الرجولة الأصيلة والنذالة الوافدة.

كان قد سمع عنها من أبيه، وعن تاريخها الذي كـان مجيـداً، حيـنما كـان رجالها أشد قوة وتألقاً وسطوة؛ لكنه عندما سكنها لم يرَ أو يسمع عمّا أخبره بـه والده إلاّ أقل القليل.

حينما عاد في زيارته الثانية بعد غيبة عام كامـل ليقـضي سـنة أخـرى مـع زوجته وابنته التي رآها تمشي وتناديـه: "بابـا عبـد الله!"، قـضى كـل وقتـه في البيت، لم يكن يزور أحداً إلاّ في النادر، كـان كمـن قـد أحـس بقـرب نهايتـه، فتفرغ بكليته لأسرته قبل العودة إلى ديترويت، المدينة التي سوف يدفن فيها إلى الأبد حيث سيجدونه مقتولاً أثناء أدائه لعمله لا يعرف له قاتل!

...

"سرد ممل ومكرور"...

قال "عبدالله" لأحد أصدقائه عندما أسمعه عن بطولات أشخاص غرباء لا أثر لها إلاّ في مخيلة القائل...

"عبدالله" الذي وحده قُتل ولم يعلم هل حياته سردٌ ممل أم غير ذلك!

فصل شارع "بي ريتش" القصة الإيطالية دون زيادة أو نقصان

- عليك أن تكون هنا غداً في الخامسة صباحاً؛ لدينا عمل مهم ومستعجل، ولا نريد أن يعرفه أحد سواك، وهذا راجع لثقتي فيك.

خاطبه "لويجي" المجنون بحذر وهو يحسب كل كلمة تخرج من فمه محدقاً في عيني "مثنى" ليعرف منهما ردة الفعل.

- لكننا نفتح أبواب المطعم في التاسعة!

بدوره "مثنى" أراد التحاذق وجرّ "لويجي" إلى الإفصاح أكثر عن سر الخامسة فجراً.

الجسد النحيل المائل إلى طول محدودب بعض الشيء، وتفاحة آدم النابتة في حلقة المتغضن الجلد تعلو وتهبط مضطربة مع كل بلعة ريق، والأسنان الصفراء التي أكلها النيكوتين، كل جسده المهدم كان ينتظر ما سينطق به العربي!

مر عام من العمل في المطعم في شارع "بي ريتش" الإيطالي، ذلك الشارع الطويل المزدان بالأشجار على جانبيه، ذي البيوت والشرفات الإيطالية التصاميم، يشعر المرء حينما يلج الشارع كأنه في أحد شوارع روما أو ميلانو.

سنة مرت وجسد "جينا" الفارع نهباً لفتوحات "مثنى" القاهرة، أو "مارتن" كما كانت تحب أن تناديه، عشيقها الأثير، الفتى الأسمر الجميل وأمير الصحراء، صحراء جسدها المشاع لخيوله الوحشية، "جينا" بنت الثلاثين والرغبات التي تشعل حروباً لا تخمد قبل مائة عام من الدمار.

في منتصف الشارع كانت لوحة المطعم تبدو واضحة للعيان، مزدانة بمصابيح ملونة، والتي كانت تضفي على الشارع حينما يهل الظلام منظراً بديعاً بصبغة إيطالية خالصة التفاصيل.

المطعم الذي يتحول كل ليلة بعد التاسعة إلى نادٍ للقمار والبغاء في البدروم المهيأ جيداً لذلك. كان "مثنى" قد أحس بريبة عندما كان يرقب، فجأة وبدون إنذار، تلك الصناديق التي تهبط إلى الأسفل ولا تخرج منه، لكنه لاذ بالصمت، وها هو "لويجي" المجنون نفسه يخبره بضرورة المجيء في الخامسة فجراً، وكأنه يشجعه على دخول عالمهم الخفي.

لم يفطن "مثنى" إلى أن "لويجي" كان طوال أشهر عدة يراقبه، ويراقب حركاته وتصرفاته وقدرته الفائقة على إجبار كل عمال المطعم، ليس على احترامه وحسب، بل والخوف منه، بحسمه القاطع لأي بادرة استفزاز أو تحرش، لكل من تسول له نفسه استعراض عضلاته عليه. كان قد أدرك أنه الشخص المطلوب الذي يبحث عنه، والذي لن يشك فيه أحد، نظراً للكنته وهيئته العربيتين.

- ما دامت هذه رغبتك فسأكون هنا في نفس الموعد.

- هه! لا تخبر أحداً، كائنا من كان!

رفع سبابته في وجهه بوعيد ضاحك يخفي من الهول أكثر مما يبديه. لم يرد "مثنى" واكتفى بغمزة واثقة.

أراد "لويجي" له أن يعرف طبيعة عمله القادم خطوة خطوة ودون استعجال، لحاجته الماسة إليه، فقد يرفض إن هو طرح عليه الأمر مباشرة، ومعنى الرفض في تلك الحالة إما قتله وإما الرضوخ لما سوف يقدم عليه، لذلك كانت خطة الخطوة خطوة ناجحة بكل المقاييس، وحينما أعلم "لويجي" "بتينو" الصغير عن صفات "مثنى" ومدى جديته وأيضاً حبه للمال، صرخ في وجهه مهدداً:

– تأكد منه أولاً! لا تكن متسرعاً أيها المجنون!

– لا تقلق يا عزيزي "بتينو"، فقد خبرته بما فيه الكفاية، إنه فتى طموح، ثق بي. ثم إنه لن يعرف أكثر مما سنعطيه إياه.

– لقد أخبرتك، وأنت المسؤول عن أي مغامرة فاشلة.

لأول مرة يُفتح باب الدور الأسفل أمام "مثنى". دور كامل التأثيث، فسيح، شديد الترتيب والنظافة. في وسطه انتصبت طاولة القمار الضخمة، وحولها تناثرت الكراسي الوثيرة والطاولات الزجاجية الشديدة الفخامة التي تدل على مستوى من يرتاده. يتصدر المكان بار هائل مدجج بمختلف أنواع المشروبات الكفيلة بإحراق خمس قارات كاملة.

عندما يلج القادم إلى داخل ذلك العالم السفلي الأنيق والسري، يواجهه قبل الدخول باب عادي لكنه شديد التحصين، زُرعت في وسطه عين سحرية لا تُرى، يستطيع المراقب منها رصد أي وجه غير مرغوب فيه.

وبعد أن يدلف المرء المكان يأخذ اتجاه اليمين بضع خطوات، حيث توجد خزانة للمعاطف. ثم يجب التوجه يساراً عبر ردهة صغيرة، ليقف مباشرة أمام طاولة القمار. بينما يقع البار على يمين القاعة، وأمامه مباشرة صالون جلوس يمتد وراءه ممر طويل نسبياً تتجاور وتتقابل فيه غرف عديدة لطلاب اللذة.

لم يكن يتخيل أن "ماركو"، ذلك الفتى النحيل الصامت دائماً، الذي كان يقاربه في العمر ويعاونه في حمل صناديق المشروبات المسكرة، سيكون هو الجلاد الذي سيقتله ويجهز عليه بأمر من "بتينو" الصغير.

إذاً، فقد أدرك "مثنى" في صباح ذلك اليوم أن عليه الاستيقاظ مبكراً مرة واحدة كل أحد، ليقوم بتفريغ صناديق الخمرة من شاحنة تأتي في نفس الموعد، بعيداً عن رقابة البوليس والفضوليين، بل وسيصل به الأمر بعد ازدياد ثقة "لويجي" به إلى الذهاب مباشرة وشراء البضاعة بنفسه من بائع يهودي في منهاتن في الجهة الأخرى من بروكلين.

– وهكذا عرفت عملك الجديد يا مارتن، سهل ومريح ودخل كبير، نحن نكرم رجالنا ما داموا لا يثرثرون كثيراً.

قال "لويجي" مهنئاً ومتوعداً. بينما "مثنى"، كما هي عادته، يستمع أكثر مما يتكلم؛ كان قد أدرك ألاّ مجال للعودة، لم يعد أمامه خيار غير المضي قدماً في بحر الليل الطويل دون علم "حنّا"، الذي ما انفك يكيل نصائحه وتحذيراته في وجهه. وعندما أوكلت إليه وظيفة رجل البار كان ذلك إيذاناً بانطفاء نجمه، فجاذبيته كانت محط أنظار النساء المترفات اللواتي يأتين كل ليلة للعب القمار والبحث عن الرجال، ومنهن "كارولين" زوجة "بتينو" الصغير نفسه، التي جُنت به وكأنه آخر الرجال في الأرض.

مهمته الجديدة زرعت الضغائن في قلوب زملائه، لكن أوامر "لويجي" لا ترد، وليس هناك أحمق فقد عقله يفكر أن يعصي له أمراً.

بعد تسلمه مهام عمله الجديد، وفي ليلته الأولى، لمح شخصاً قصير القامة له وجه طفل، لا تزال آثار جدري قديم واضحة فيه، تبدو أمارات السطوة في حركاته وهيئته وفي تبجيل رواد المكان له وإحنائهم الرؤوس كلما تصادف بهم، ينادونه السيد "بتينو" العزيز.

"بتينو" كان يبدو أصغر من عمره بكثير، مع أنه قد تعدى الخمسين، جامد النظرات، حاد الصوت، أنيق المظهر، له رأس كبيرة وأذنان مضحكتان لضخامتهما اللافتة للنظر.

– أهذا هو العربي الذي حدثتني عنه يا "لويجي"؟

في لقائهما الأول بدا له أليفاً وودوداً، رغم نظراته الثاقبة، وأول مرة يصافح فيها تلك اليد اليسرى لم يعرها اهتماماً كأي يد صافحها من قبل، تلك اليد اليسرى التي ستنتزع عضوه التناسلي وخصيتيه بوحشية مرعبة، ذات يوم ليس ببعيد.

كان ثمة حرج يقارب الخجل ينتابه عندما يشاهد وجهه في المرآة. "خمر وبغايا ومال حرام! ماذا بعد ذلك يا مثنى؟!". أرقه ضميره كثيراً، كان بين نارين، نار الفاقة، ونار اللذة والمال؛ "لكن ما العمل؟! أريد أن أعيش!".

كل يوم كان يأتي مشياً على قدميه، قاطعاً بروكلين من منتصفها الشرقي إلى منتصفها الغربي الذي يطل على البحر، باتجاه المطعم. تغيرت حالته كثيراً بعد نجاحه في مهماته، وابتاع سيارة وبذلات وأحذية وقبعات، من رآه بقصة شعره تلك التي تساير الموضة لظنه إيطالياً أباً عن جد.

وثّق علاقته مع "لويجي" ومساعده الأمين، كما كان المجنون يحب أن يناديه، "كالفينو"، الطباخ، عراب العالم السفلي وقائد الأمن، ويد "بتينو" العسكرية.

أما "جينا" المهووسة به فقد كانت هي من سعى إلى جسده لتشبعه عضاً ونواحاً شبقياً لا تهمد ناره بين يديه القاسيتين اللتين كانتا تهرسانها هرساً، وقد كانت فرساً جموحاً امتطاها فارس لا يهاب ولا يُخيّب الظن.

كانت تفعلها معه في نفس سرير الزوجية، سرير "لويجي" الذي لو علم بخيانتها لأحرق العالم.

"قبحه الله! لا يحسن سوى عد المال وتجرع النبيذ وأكل الثوم والتدخين". كثيراً ما كانت تلعن زوجها وتجاهر ليس أمامه، فسوف يشرب من دمها، بكراهيتها له أمام أميرها الوسيم، وتزداد نقمتها واشمئزازها منه بعد كل جولة لافحة بين يدي "مارتن"، بينما هو لا يعنيه من الأمر شيء، فما دامت تغدق عليه، فلتذهب إيطاليا ومهاجروها إلى الجحيم.

لو أنه أدرك للحظة واحدة أن غيرة هذه المرأة، التي تبدو مستكينة بين ذراعيه، ستودي به وستكون سبب قتله، لما نام معها ولا حتى ابتسم في وجهها.

بدا وكأنه مثل الذي يمشي في نومه يسير على غير هدى، أنسته نيويورك الصاخبة أهله وبلاده. وحده "حنّا" من كان يئز في أذنيه بنصائحه عندما رآه يسعى إلى انتحاره بقدميه دون انتباه أو حذر.

"يا مثنى! انتبه لنفسك، فالحياة ليست نساء وخمرة وعربدة؛ الحياة مسؤولية تجاه الذين يحبونك ويخافون عليك".

"حنّا" الوحيد المسكون بالخوف عليه، خوفا مبالغا فيه، لكنه ما استطاع منه فكاكاً. وحده بدون أن يدري أحس بالكارثة قبل وقوعها.

"مثنى! لا تتخذ مني مثلاً في ضياعي، فأنا إنسان محطم ومكسور حتى العظم، لم يعد يهمني شيء في هذه الحياة بعد ما خسرت أعز الناس، بينما أنت لا تزال شاباً. أفق، انتبه يا رجل، إلى أين أنت ذاهب!؟ فهذا النعيم الذي هلَّ عليك فجأة قسماً بالله العظيم أن مصدره يبعث على الخوف".

"حنّا"، القديس في زمن الشياطين، من أخذ دون خوف أو رهبة يطارد "لويجي" المجنون، ليسأله عنه حينما اختفى شهراً كاملاً، لم يكن يدري أنه قد أصبح رماداً تذروه سفن الريح وأمواج النهر القريب.

"اسمعني أيها الإيطالي! صديقي لا يعرف أحداً سواي في نيويورك كلها، وهو لا ينام إلا في غرفتي، عليك أن تخبرني أين هو، فآخر مرة رأيته كان هنا في مطعمك".

كان يعلم جيداً من يخاطب، ومع ذلك لم ترهبه نبرات التهديد التي كان يفح "لويجي" بها في وجهه.

"وما أدراني أين ذهب ذلك الأحمق! هل تظنني المسؤول عن كل مشردي هذه المدينة"، مشدداً بقوة على كلمة "الأحمق" وكأنما يتأسف عليه.

يدرك "حنّا" تماماً أنه يقارع "لويجي" وليس بائع الزهور في المحل المجاور، لكن لم يكن أمامه خيار. "قسماً بالله لن أكف عن البحث عنك يا مثنى، يا ابن الكلب، حتى لو قتلوني أبناء الزواني!"، أقسم على نفسه قسماً كانت كفارته رقبته.

"قد لا تكون مسؤولاً عن مشردي هذه المقبرة، لكن بالنسبة لي أنت مسؤول عن صاحبي، وإلا فالبوليس هو المسؤول، وسترى!". كلفته تلك الجملة التي خرجت في سورة الغضب غالياً جداً، وجعلته يلحق دون إبطاء بصديقه الذي جاء يبحث عنه؛ فحين عاد في المساء إلى البيت قادماً من الكشك تتناوشه الحيرة على مصير "مثنى"، كان في انتظاره بعض الضيوف الذين لا يعرفهم من قبل، باشره أحدهم بلكمة صاعقة على وجهه كادت أن تقتله لشدة قوتها. أحد الضيوف كان "ماركو" الصامت دائماً. أدرك "حنّا" أنه ميت لا محالة، فهؤلاء الغرباء لم يأتوا قطعاً للاطمئنان عليه.

أطلق صرخة مدوية وافتتح الحرب، هجموا عليه من كل جانب، كانوا ستة غلاظاً شداداً لم يسمعوا أبداً عن شيء اسمه الرحمة، ضرب أحدهم على وجهه حتى أسقطه أرضاً، كان في اندفاعه الهجومي يحاول التراجع باتجاه باب الشقة ليفر بجلده، لكن الغدر مخلوق قديم، فقد ضربه أحدهم بعقب مسدسه على رأسه، فسقط غائباً عن الوعي ولم يستيقظ بعد ذلك أبداً. "يجب علينا الانتهاء منه بسرعة". أخيراً نطق "ماركو"، نطق بالموت.

ذبحوه برفق يليق بالمناسبة، وبهدوء يُحسد عليه، من الأذن اليسرى إلى الأذن اليمنى، وغادروا المكان خفافاً لا يراهم جنس مخلوق.

كان "حنّا" يلح عليه بالنصح، و"مثنى" هائم في عالم آخر من الجنون والندم، القرف والحنين، يشعر بأشياء كثيرة تتحطم داخله. "افتقدك يا أماه في هذا الضياع!".

كان ينادي أمه أحياناً، وخصوصاً عندما يتعتعه السكر. كانت لحظات ضعف عابرة، لكنه سرعان ما يعود إلى نسيانه البارد، وينغمس أكثر في حياة المجون، وأحضان "جينا" ومراقبة البغايا وبيع الخمور والأفيون والحشيشة الكولومبية المرعبة، وكل ما يؤمر به.

امرأتان تنازعتاه "جينا"، و"كارولين" زوجة "بتينو" الصغير التي حينما رأته للمرة الأولى بهدوئه وعمق عينيه وسمرته اللذيذة وقدّه الممشوق في امتلاء محبب. "يا للمسيح! كم يبدو هذا الفتى جميلاً!".

كان قد عرف من أين تؤكل أكتاف الإيطاليات الشهيات. وكان في أسرّتهن نعم المحارب الذي كنَّ يبحثن عنه. ذات مرة وبعد انتهائه من نهش "كارلو"، كما تحب أن يناديها، سألها بخبث، بعد لقائهما العاصف الأول

- ما رأيك؟

- يا إلهي! لقد كنت مثل وحش مفترس.

- إنني شديد القسوة في هذا الأمر.

- وأنا أحب ذلك ويمتعني أكثر.

- ماذا عن العزيز "بتينو"؟

كان سؤالاً ظاهره البراءة وباطنه المكر.

- إنه مجرد رجل مشغول بالمال وبإصدار الأوامر، ونـادراً مـا نلتقـي في السرير.

كانت نائمة على صدره البارز الكثيف الشعر، مثل قطة تخاف على نفسها البلل. "وإذا كان له صفة أتوقف عندها فهي شـدة بطـشه وجبروتـه الـذي لا يطاق وغيرته العمياء". أخبرته وكأنها تحذره من زوجها؛ "فهو لا يعرف أمـه إذا أدركه الغضب".

ترك "جينا" وغيرها، وارتقى في جحيمه درجة باتجاه "كـارلو"، ذات الجسد القوس والنار التي لا تخمد، امرأة ناضجة الثمار زكية الطعم والرائحة.

كانت تراقبه مبهورة الأنفاس في كل تحركاته أثناء تواجدهما في البـدروم السري، مما أشعره بالحرج والخوف من ذلك القصير اللعـين، فهـو لـن يتـورع عن قتله لو رآه يمسك بيد زوجته فكيف بجسدها المقدس!

تحركت أمعاؤه في بطنه حينما تخيل أن "بتينو" قد يعلـم سر علاقتـه مـع "كارولين"، وقد حدث ما كان يخشاه، فقد دهم القصير اللعين المكان، مكان لقائهما الحميم، وضبطهما عاريين، لقد كان زعيقه يخلع القلـوب مـن أماكنهـا،

بعد أن أوشت بها "جينا"، انتقاماً لكرامتها المهدورة من قبل امرأة مثلها تجرأت وسلبتها رجلها وعشيقها الأثير.

"ما الذي تفعله مع زوجتي يا نائك أمك!!؟ لأقتلنك قتلةً لم يقتلها ابن عاهرة في هذه المدينة". شلته المفاجأة فلم يدر ماذا يفعل، التفت إلى "كارلو" التي كانت قبل بضع دقائق بركاناً من جمر وحمم، فوجدها تمثالاً بارداً من شمع، مأخوذة بصاعقة المباغتة القاتلة. "بتينو!" خرج صوتها مرتجفاً كمن يود البكاء.

– اسكتي أيتها الساقطة إن كنت لا تريدين أن تواجهي مصير عشيقك!

– تعقل، فالأمر لا يستحق و...!!

– ماذا!!؟ لا يستحق!!؟

زعق مثل المطعون في قلبه، وهوى بيده على وجهها بغضب ماحق حتى أدماها.

– زوجتي تنام مع أحد كلابي، وتقولين الأمر لا يستحق! يتحداني ابن الحرام ويطعنني في ظهري، وتقولين الأمر لا يستحق!!

كانت يده تنهال عليها بوحشية حتى أوشك على قتلها، بينما "مثنى" لا ينبس ولا يتحرك، سمّرته فوهة مسدس مثبتة إلى صدغه، أدنى لفتة ويفجرون جمجمته، فهو يعرفهم جيداً. "أنا، بتينو الصغير، الذي يرتعد الأطفال لمجرد سماع اسمي، ويبول الرجال على أنفسهم خوفاً من بطشي، وتعدّين الأمر هيناً لا يستحق يا كلبة!".

أدرك "مثنى" أن النهاية قد حانت، وأين؟! في سرير امرأة عارية ضبطها زوجها بالجرم المشهود. "ضاع عمرك يا مثنى! وستقابل الله دون فرصة للندم والاستغفار".

- ماركو!

صرخ "بتينو" في رجاله المتوثبين وكأنهم طلع الشياطين.

- أروه، هذا الفأر الصحراوي، كيف يكون جزاء الخونة!

لم ينتهِ من إصدار الأمر حتى انقضوا على ضحيتهم مثل ضباع جائعة، فانتزعوه من مكانه وتخاطفوه كنسور جارحة، وبطحوه على أرضية الغرفة وبدؤوا إعداده للموت لا يرمش لهم جفن.

كانت وحشية لا توصف. صرخت "كارولين" والدماء تنهمر بغزارة من فمها وأنفها

- اتركوه يا قتلة! أنا التي أغويته!

سحبها "بتينو" من شعرها وجرها خارج الغرفة جراً.

- اخرسي! حسابك لاحقاً يا بنت مرقّع الأحذية! امسكوها، لا تدعوها تفلت من بين أيديكم!

صرخ في بعض رجاله وعاد إلى الحجرة ليفتتح المجزرة.

حاول "مثنى" المقاومة، لكنهم بطشوا به ولم يتركوا له فرصة للتنفس. رأى أمه تبكي، عض بأسنانه، رفس بقدميه، لكنها كانت مقاومة القتيل عندما يقاد إلى حتفه، ضربوه ضرباً مروعاً أوشك معه أن يجنّ لشدة الألم الذي كان يعصف به، ودمه ينزف بغزارة من وجهه وصدره وساقيه.

دمروه دماراً نهائياً لا تصلح بعده حياة، استعداداً لذبحه، لكنهم قبل أن يفعلوا تقدم "بتينو" باتجاهه على صراخ زوجته من الحجرة المجاورة: "يا قتلة! يا سفاحين!"، وبيده اليسرى انتزع عضوه وخصيتيه. صرخ "مثنى"

من موته بأعلى وجعه، كان صوتاً مدوياً ينادي به أمه البعيدة، نزف دمه من الفم والأذنين ومن أسفله المجتث اجتثاثاً، ثم إنهم أشهروا سكاكينهم.

- مزقوه! ابن العاهرة...!

نعق بها "بتينو" كما لو كانت آخر جملة ينطق بها في حياته، وعضو عدوه وخصيتاه في يده الملطخة بدم كثيف يقطر من بين أصابعه.

شرعوا في تمزيقه مثل خروف لا حول له ولا قوة، وهو يصرخ في غيبوبته ويبكي ويتوسل لا يسمعه أحد، مزقوا شفتيه وأذنيه وجدعوا أنفه وأشبعوه طعناً، ثم قاموا بفصل رأسه عن جسده. سال الدم غزيراً وملأ أجزاء واسعة من غرفة النوم الفاخرة، وانتشرت رائحة الموت في سماء الحجرة، و"بتينو" يراقب وهو يزوم بحقد.

- انتزعوا كبده ليأكلها كلبي!

كانت العملية تمر بسرعة وكأنهم يسلخون حيواناً برياً اصطادوه دون قصد.

لم يستغرقوا من الوقت إلا ما يستغرقه جزار محترف في سلخ عجل رضيع، ثم وضعوا جسده الممزق في أكياس بلاستيكية وقاموا بتنظيف الغرفة بسرعة يحسدون عليها وغادروا بأضحيتهم، وصوت "كارولين" يولول مهدداً وباكياً.

كان بكاءً حقيقياً على رجل أحبته حتى الجنون، ذلك الحب الذي استحال لعنة على "بتينو" الصغير ومملكته بأكملها؛ فقد وشت به للبوليس وقدمت الأدلة إلى القضاء بحيث تم القبض على "بتينو" الذي جُنّ في السجن وأخذ يسرد حكاية العربي الذي قُتل شر قتلة على يديه.

لم تكتف "كارلو" بذلك وحسب، بل إنها بعد أن حطمت "بتينو" اللعين إلى الأبد أقدمت على الانتحار، حيث ألقت بنفسها من شاهق وماتت على الفور.

حملوا "مثنى" ممزقاً في أكياس موته، وفي مكان لا يعرفه سواهم وضعوا الأشلاء في فرن كبير وأضرموا فيها النيران، وبعد مرور بضع ساعات كان "مثنى" قد تحول إلى رماد نُثر في الهواء في مكان خفي من نيويورك، المدينة المشغولة بضجيجها، وأصبح "مارتن"، الوسيم، الفحل، الماكر، مجرد رماد تتقاذفه الرياح، وبقايا متفحمة أجهزت عليها أسماك نهر المدينة الكئيب، وكأنه لم يكن!

فصل "ديبي" الحلوة عندما أختطفتني وراودتني عن نفسي واستسلمتُ لها بكامل الحول والقوة

لم يأتِ أحد لتوصيلي إلى "دكس" في تلك العصرية، كنت قد انتهيت من عملي واتصلت بأحدِ أصدقائي ليأتي كي يأخذني بسيارته. مر الوقت بطيئاً ولم يظهر مخلوق أو أي ابن فاعلة وتاركة. انتابني الضيق وأنا مبلول أدخن بضجر.

كان يوم أحد، وهذا يعني أن اليوم كان شاقاً ومتعباً على مغسلي الصحون. كنت، وشخص آخر يساعدني اسمه "بروس" ذلك الأبيض الطويل الشعر الموشوم بصور غريبة على ساعديه والذي لا يأتي إلى العمل إلا برفقة جيتاره، نكدح بين الصحون و"الطناجر" والقدور الكبيرة، إضافة إلى قيامنا بتنظيف الحمامات ومسح الأرض وإلقاء القمامة المتراكمة، كل ذلك كان يتم دون توقف، طوال اليوم، إلا من استراحة قصيرة. وحدها "ديبي"، الفتاة التي تدعوني بعينيها إلى المغامرة وأنا أحاول التملص منها، كانت الوحيدة من يسألني لماذا تأخر صاحبي عن المجيء.

كان عالماً جديداً بالنسبة لي، وكانت لغتي المهلهلة عقبة كأداء تحدُّ من تقدمي واندماجي الكامل بين الناس الذين أعمل معهم، وأنا الآن في الشهر الخامس منذ قدمت إلى أمريكا أعمل مغسلاً للصحون وأعيش حياة رتيبة مملة لا جديد فيها.

أوشك الوقت أن يقارب السادسة مساءً ولم يأتِ أحد من أبناء الحرام.
كنا في بداية الصيف، ذلك الصيف الذي سأدخل عبره بوابة الأجساد الأنثوية الجارحة، عالم يثير الدهشة والقرف واللذة والملل والندم.

- علي!

لدغتني "ديبي" بصوتها. كانت تعمل في نفس المطعم كمضيفة، فتاة لعوب الحركات، وهي الآن على وشك المغادرة بعد أن أنهت ساعات عملها.

- ألم يأتِ أحد لأخذك بعد؟

كنت قد انتهيت من عملي في تمام الثالثة عصراً، وها هي ثلاث ساعات قد انقضت وأنا انتظر.

- لا.

- أستطيع أخذك في طريقي إن لم تمانع.

لم أنطق، لكن "آلن"، الطباخ الذي توطدت صداقتي معه، حينما كنا نتجادل عن تلك الحرب بين العراق من جهة، وأمريكا والعالم وصمته من جهة ثانية، كان يكره صدام حسين ويصفه بالمغامر قليل الذكاء، فألعن بدوري جورج بوش وأنعته بأقبح الصفات، العجوز الوحشي واليانكي الأخرق قاتل الأطفال رسول الشياطين و... و...، غمز بعينه بخبث ومد لسانه في حركة جنسية.

- إنها ديبي التي لم ينلها أحد منا بعد.

دوى بضحكة عالية عند ما رأى استسلامي.

- هيا يا "ديبي" فلا خيار أمامي.

رأيت في عينيها ما يشبه الظفر. كان أول التصاق بيني وبينها عندما ارتمت عليّ بصدرها وكأنها تحاول أن تساعدني على ربط حزام المقعد.

- لا أريد أن يوقفنا البوليس ويعطينا مخالفة لعدم ربط حزام الأمان.

كانت ساخنة، أحسست بذلك خلال الالتصاق الخاطف الذي كان

مجرد مقدمة لما سيأتي بأن ثمة هديرا داخلها، عرفتُ المكيدة عندما أخذتْ طريقاً غير تلك التي تعودت عليها.

- إلى أين نحن ذاهبان يا ديبي؟
- هل أنت خائف؟!

رمقتني مبتسمة تنتظر ردة فعلي.

- وممَّ الخوف؟!

هي لا تدري أنني قد استطبت لعبتها، لكنني تمالكت نفسي ولم أخبرها بانكشاف اللعبة. كانت اللغة حجر عثرة في تواصلي مع من هم حولي، لكنني كنت في تلك اللحظة طليق اللسان، أو هكذا خُيّل إليّ، فقد كانت إيجابية معي إلى درجة شعرت معها أنني أجيد اللغة الإنجليزية، لهزها المستمر لرأسها علامة الفهم والموافقة لما كنت أتلعثم به.

نصف ساعة تقريباً بالسيارة اخترقنا خلالها منطقة للسود يقطعها شارعي "جيفرسون" و"يوريكا"، بشكل حاد ومتواز محطمة البيوت والشوارع، وصولاً إلى منطقة أو مدينة يسكنها البيض اسمها "ملفنديل". وأمام أحد البيوت توقفت بنا السيارة.

كان بيتاً من طابقين، له سور حديدي طلاؤه أبيض. وفي الخلف حديقة واسعة ومسبح طالما سبحت فيه فيما بعد. كذلك كانت واجهة البيت مشذبة الأزهار مقصوصة الحشائش. وعلى ذلك السور ثُبّتتْ لوحة معدنية كتب عليها الجملة المشهورة المتواجدة على سور كل بيت أمريكي "انتبه! كلب شرس"؛ مع أنني لم أرَ كلباً ولا قطة.

- نحن لسنا في الاتجاه الصحيح يا ديبي!
- أعرف هذا.
- إذاً!
- إذاً؟!

رددتها ضاحكة وهي تحدق في وجهي بتحدٍّ أثارني.

- هيا! انزل، ولا تكن خوافاً، فلن آكلك، سآخذ بعض الأغراض ثـم نواصل طريقنا.

- لا، لا، ليس الأمر كما تتصورين.

- اخبرني، هل أنتم العرب خوافون هكذا؟!

- مع النساء؟! أبداً!

دخلنا البيت. كان بيتاً رائع التأثيث، يـوحي بالـدفء. اسـتقبلتنا صـالة استقبال واسعة مرتبة في غير تكلف، تنبعث منها رائحة النظافـة. وثمـة زهـور مختلفة الألوان وضـعت في أصـص متفرقـة في الوسـط. إلى جهـة اليـسار مـن المدخل انتصب تلفزيون ضخم على قاعدة خـشبية متحركـة. وعـلى الجـدران لوحات تمثل الغروب، وكاوبوي على حـصانه، ونـسر أمريكـي أصـلع ينظـر بكبرياء إلى يمين الصورة. كذلك انتشرت كراسي جلدية سوداء اللون.

- هل تريد أن تشرب شيئاً؟

- نعم.. حليب.. أعني كأس حليب من فضلك!

- ماذا!؟ ها... ها ... ها!

ضحكت حتى استلقت على قفاها.

- هل تريد أن أضعه لك في رضّاعة وأرجّه جيداً يا حبيبي!!؟

وعاودت الضحك، كانت ضحكتها ساحرة كما لو كانت رجع لـصدى موسيقى بعيدة، حتى أضحكتني معها. ولأنهي الموضوع عاجلتها:

- طيب، ماذا عنك؟!

مسحت دموع الضحك بكمها، كان لعينيها صفاء نهر عميق.

- نبيذ، ويسكي، بيرة...

لم تدرك بعد أنني بدوي أسعى إليها جهدي لكنني التزمت استراتيجية البساطة وتصنع عدم الفهم.

- إذاً، لتكن بيرة!

كانت نظراتي قد اتخذت وضعية الهجوم، وهي لن تفلت، لكنها كانت نظرات خاطفة لم تلحظها، فلو أدركت مدى اشتهائي لها لتمنعت ولأتعبتني معها، لذلك تركتها تنال شرف المبادرة، وقد فعلتْ.

وجهها حليب ممزوج بحمرة خفيفة، وشعرها كستنائي، وجسدها ممتلئ مثل عسل صب في قارورة، وعيناها لوزيتان مكحولتان بخضرة خفيفة، ولها صدر ريان علقت فيه كمثرتان متوسطتا الحجم تستحقان الشفقة والعناية. كل تلك التضاريس زرتها، وتركت فيها أثر خطواتي.

أمها طبيبة، طُلقت وهي لم تتعدَّ الثانية عشرة قبل عشر سنوات. لها أخ يكبرها بعامين، وليس معها بوي فريند.

- هل ستبقى بهذه الملابس المبلولة؟! إن هذا قد يضرك؛ قم وخذ حماماً ساخناً ريثما أضعها في المغسلة وخلال عشرين دقيقة ستكون جاهزة.

كنا نلعب لعبة عدم الفهم وتصنع البراءة، بينما كلانا ينتظر الفرصة الملائمة للهجوم.

أخذتني بيدي إلى الحمام مثل طفل صغير اقتنع أخيراً بضرورة الاغتسال. كانت حنونة، وقد أثر ذلك في نفسي، كان حناناً له أسبابه.

- لكن متى ستأخذينني إلى "دكس"؟!

تماديت في التمثيل، فرمقتني بنظرة العالم بما يحدث، لكنها ابتسمت بأسنانها الحليب ابتسامة تزيل المواجع.

- لا عليك، بمجرد أن تنتهي من الحمام تكون ملابسك قد جفت وبعدها بإمكاني أخذك إلى حيث تريد، أوكيه؟!

مسحتْ على وجهي بأصابع مرتجفة فأشعلت النار في عروقي.

- أوكيه!

خلعتُ ملابسي وقذفت بها من وراء الباب، فأخذتْها وذهبتْ تاركة إياي في حمام واسع كما لو كان حجرة استقبال، رف للكتب؛ كتب في الحمام!!؟ ومجلات ملونة في سلة من سعف اصطناعي، كذلك أصناف عديدة من علب الروائح والصابون والشامبو.

ملأتُ الحوض وغطست فيه. أنعشني الماء الدافئ بعد تعب ساعات طوال. وبينما أنا ألبط في الماء ورغوة الصابون الكثيفة، تناهى إلى سمعي صوت رشاش الماء في الطابق الأعلى؛ لقد كانت تغتسل هي أيضاً. يا لها من طيبة!

انتهيت من حمامي الملكي لأول مرة في حياتي بهذه الفخامة، وعندما لم أجد ما أستر به نفسي، استخدمتُ مناشف الحمام وعدت إلى الصالة، لم يكن هناك في البيت سوانا، لأجد أمامي علبة "بود وايزر" مثلجة، فتحت التلفزيون عن بُعد، وأخذت أشرب وأنتظر، حتى أشرقت شمسها؛ "يا رب محمد!". لم أصدق ما رأيت. هل هذه ديبي؟!

أقبلتْ مثل آلهة يونانية، يسبقها عطرها، وشعرها ألف شلال من ألف بحر وألف غابة وملايين العصافير، منثور على كتفيها حراً طليقاً، وشفتين ممتلئتين طلتهما بالقاني الحارق الأكباد، وعلى جسدها الذي يبعث على الجنون أسدلت ثوباً شفّافاً شديد البياض كما لو كان غلالة من ثلج يستر تمثالاً مرمريَّ القداسة.

تيبستُ مكاني، عجمتُ وكدت أجن، تقدمتْ وجلستْ بجواري محدقة

في عيني بكل لازورد الأنهار المقدسة في كتب ديانات لم يسمع بها أحد من قبل، متسلحة بابتسامة تستعبد أشد الرجال.

أخذتْ القارورة من يدي وتناولت جرعة خاطفة منها ثم أسقتني بعدها وأنا مسحور، لا أنطق، لا أتنفس، فقط أشاهد.

أحببتُ طلعة وجهها وعطاء جسدها الخرافي، ذلك الوجه الذي كنت أنهال عليه صفعاً لأتفه الأسباب، لأتخلص منها، لكنني فشلت، وكلما كان الغضب يدهمني كانت تتكور على نفسها دون مقاومة، مسلِّمة نفسها لجنوني البليد. "اضربني يا علي، إذا كان ضربي يريحك!"، فأنهال عليها بالضرب، ثم أجرها إلى السرير وأنهشها نهشاً، فتبكي وهي تنزع من اللذة "أحبك يا علي، اقتلني ولا تتركني!".

كانت تمثل لي ورطة لا فكاك منها، حتى أنجبت لي ولداً، كان يشبهني تمام الشبه، باستثناء عينيه اللتين تشبهان عيني "ديبي"، التي سأتزوجها في مستقبل الأيام وأتمزق بين يديها فلا يبكيني أحد سواها.

التصقتْ بي، لفحتني أنفاسها الحارة، عضتني على عنقي عضة خفيفة أطارت صوابي، أخذتها إلى صدري والتهمت تلك الشفتين، كنت أحس بدويٍّ ينبعث من داخلها يزيد من سعاري.

- أين الغرفة يا حبوبتي؟!

كانت مغمضة العينين، مبهورة الأنفاس. أشارت بطرف سبابتها إلى الأعلى. حملتها بين ذراعي وصعدت بها متثاقلاً إلى غرفة نومها ووضعتها برفق على السرير ويداها تطوقان عنقي ثم...!!

فصل "جينا" والسِّر الذي أفشته ولم تدرِ بعواقب فعلها إلاّ لاحقاً ولم تشعر بتأنيب الضمير

- هكذا إذاً، فقد عادت كارولين إلى جنونها مرة ثانية!

كان "بتينو" الصغير ينفخ دخان سيجارته في سماء المكان بغضب مكتوم، يود تحطيم أي شيء، ينفس عن غضبه، أثناء ما كانت "جينا" تحدثه عن علاقة زوجته بـ"مارتن" العربي. كان الحسد والغيرة قد أعمياها رغم إدراكها أن وشاية كتلك في أذن "بتينو" تعني مسح "مثنى" من سجل الأحياء والأموات أيضاً، لكنها ارتضت لنفسها تلك الوشاية القاتلة انتقاماً من العشيق الذي تركها وكذلك من المرأة التي سرقته منها.

- لقد حذرتها مرات عديدة ونصحتها بالتعقل وألاَّ تنسى أنها زوجة لرجل المدينة الأول الذي لا يجرؤ أن يقف أمامه حتى رجال البوليس أنفسهم لكنها...!

- منذ متى بدأت الكلبة تسلم جسدها لذلك الحيوان؟

قاطعها محتداً ووجهه الأبيض يتخلى رويداً عن لمحته الطفولية المجدورة، ويزداد غضباً مثل بالونة توشك على الانفجار.

- منذ فترة طويلة.

- وأنت! هل تركته أم أنه هو من تركك؟!

كان سؤالاً مباغتاً. تلعثمتْ؛ لم تكن تتخيل أن هذا الرجل الجهنمي المشغول بمطاردة المال ومقارعة خصومه سيجد الوقت الكافي للاهتمام بأسرارها الصغيرة.

- هاه...!

شهقتْ، لم تستطع الرد، وغطست في عرقها؛ فمعرفة "بتينو" بقصتها الغرامية قد تؤدي بها إلى الشارع، إن هو أخبر "لويجي"، هذا إذا لم يكن نصيبها القتل.

- تعرف يا بتينو أن لكل شخص هفواته ونزواته و...!

- كلكن هكذا، مثل الكلبات الشبقات، تسعين وراء الكلب الجديد يا عاهرات!

- صدقني!

حاولت أن تدافع عن نفسها شارحة له بأن الأمر ليس أكثر من نزوة حمقاء لكنها أقلعت عنها، وأنها لا تريد الوشاية بأحد بقدر ما أرادت تنبيهه لما يجري وراء ظهره، فخيانة زوجته له دون علمه جعلته يظهر بمظهر العاجز أمام أعدائه وأصحابه على حد سواء، بينما هو في حقيقة الأمر يبدو غير مكترث لأكاذيبها يرمقها باحتقار وازدراء، فبدت وكأنها قد وقعت في ورطة لا فكاك منها.

- وأين هما الآن؟

سألها ونهض من مكانه مثل الملدوغ. تلجلجتْ بعد أن أدركت مدى الكارثة التي سعت إليها، فـ"بتينو" حينما يغضب فلا بد أن مصيبة ستقع. لم تجبه، رعباً منه مما قد يفعله بها إن أعمته سورة الغضب التي تعصف به.

- أقول لك أين هما الآن أبناء الزواني؟ أنطقي يا كلبة يا سلسلة الجيف والمفعول بهم في أدبارهم وأفواههم!

أمسك بعنقها بكلتا يديه وأوشك على خنقها.

- في شقتك.

قالتها مثل طلقة استقرت في قلبه وهي بالكاد تستطيع التنفس. مادت به الأرض، كاد أن يفقد عقله؛ فذلك يعني أن العربي يلتهم زوجته في غرفة نومه، يضاجع امرأة "بتينو" الذي لا يجرؤ أكبر رأس في نيويورك أن يمسك له طرف.

- ماركو!!

صرخ مثل المجنون بكل ما أوتي من قوة وغضب وشعور بالغدر والمهانة.

- ماركووووووو!

أقبل "ماركو" الناحل مهرولاً ويده على مسدسه.

- نعم "بتينو"!

- هيا معي، أخبر الرجال، علينا عمل يجب أن ننتهي منه الآن دون تأخير.

كان عملاً دموياً جاداً جداً استغرق منهم ساعات معدودة ما بين تقطيع وحرق وذر رماد الجثة التي لا تدري بعد ما الذي ينتظرها من أهوال. لم ينطق بشيء أو حتى أشار برأسه للمرأة الخائفة، وانصرف يتبعه "ماركو". وقبل أن يذهب التفت نصف التفاتة باتجاهها ونطق من أنفه المجدور مثل خنزير في مسلخ

- أما أنت يا جينا فالزمي الصمت ولا تخبري أحداً إن كنت لا تريدين إغضابي!!

هزت رأسها خائفة ولم تقل شيئاً، كانت مهمتها قد انتهت، البقية على "كارولين" و"مارتن"، عليهما وحدهما تحمل النتائج. وعندما تأكدت أنها صارت لوحدها أطلقت قهقهة عالية مليئة بالحقد والتشفي وكلاب الانتقام.

فصل اليوم الأخير من حياة "عبدالله" الذي لم يكن قد استعد له بعد

في ذلك اليوم الذي قُتل في ليله المشؤوم "عبدالله" لم يستطع النـوم عـلى الرغم من أنه اشتغل طيلة الليلة الفائتة. تنقل في كـل غـرف البيـت بحثـاً عـن شيء لا يدريه. قلق عاصف انتابه، وشعور حاد بـالخوف لا يـدري أسـبابه أو لماذا. لم يكن يدري أنه سيقتل في ليلته تلـك، وأنـه لـن يعـود إلى البيـت ليجـد الفطور أمامه، وكذلك أباه ينظر إليه بحنان واطمئنان لعودتـه محـذراً إيـاه مـن مصاحبة الأوغاد.

في تلك الليلة، الأخيرة له على الأرض، ارتدى قبل ذهابه إلى العمـل، في محطة البنزين، بذلة بيضاء تميل إلى اللون البصلي، كـان قـد اشـتراها قبـل فـترة قصيرة من مقتله، تلك البذلة التي أصيبت بعـدة طلقـات متفرقـة في أنحائهـا، وستظل ملطخة بدمه معلقة في دولاب والدته، كذكرى للشهيد المغادر مبكراً، والتي كلما رأتها وشمت عرقه في ثناياها تنهار باكية؛ بذلة بيضاء ناسبت طولـه تماماً كما لو كانت كفناً له دون أن يدري.

كل يوم كانت أمه تستيقظ في نفس موعد عودته إلى البيت صباحاً، وتقف عند الباب تسترق السمع إلى صوت الجرس لتفتح له الباب، لـ"عبدالله" الذي تركها لأحزانها وغاب، "عبدالله" الذي قبّلها على جبينها وعانقها بشوق لأول

وآخر مرة بتلك الطريقة التي بدت غريبة، "عبدالله" الذي أخذ يراقبها بعينيه وهو ينزل الدرج باتجاه السيارة التي ستأخذه إلى الأبد.

"سامحيني يا أماه!". لم يقلها من قبل، هل أدرك أنه سيموت؟!. "قل لي يا كبدي، هل كنت تدري أنك كنت ذاهباً إلى الموت!؟". كانت تُسائل صوره وثيابه وأشياءه. "لو كنت أدرك أنك ستقتل ما تركتك تذهب ولو افتديتك بعمري كله يا حيد(*) أمك الغالي!".

كان قد حاول الاعتذار عن العمل في تلك الليلة، متعللاً بنزلة برد شديدة أصابته، لكن صاحب المحطة رفض عذره بشدة، مهدداً إياه بالفصل، لأنه لا يوجد شخص آخر يحل محله، فذهب متردداً وأمه تراقبه تود البكاء لا تدري لماذا.

غادر "عبدالله" ولم يعد ثانية، وأمه تناجي كل شيء عنه وتحتضن كل ما يخصه وتبكي. "كان قلبي قد أحس بأنك لن ترجع لي مرة ثانية يا عبدالله! قتلوك يا نور عيوني ورأس مالي!".

ناحت شهوراً طويلة تشعلها نار لا تنطفئ، وفاضت دموعها على كل شيء، وصبغت أحزانها العالم بوجع لا يطاق أو يتحمله بشر، و"عبدالله"، في صوره الملونة، يبدو مبتسماً تلك الابتسامة التي ستغيب مثل نجمة في الفضاء لا قرار لها أو عودة.

(*) حيد: جبل.

فصل الثلاثة الذين قُتلوا في ليلة واحدة بطلقة صغيرة في صدغ كل واحد منهم

كان يوم اثنين، وكان العمل راكداً بعض الشيء في المطعم، وكنت ضجراً. "تعبت وقرفت من غسل الصحون ومن المستقبل الغامض الملامح الذي يبدو أمامي مثل نفق مظلم لا نهاية له". قذفت المريول وذهبت إلى غرفة العمال واتصلت بأحد الأصدقاء لتمضية الوقت؛ وليتني لم أفعل! فما سمعته كاد أن يذهب بصوابي، ثلاثة شبان لقوا مصرعهم في الدكان الذي كانوا يعملون فيه!!

اسودّت الدنيا في وجهي. لم يخبرني بأسمائهم، لكنني حينما عدت إلى "دكس" مستفسراً عرفتهم؛ كان أكبرهم في الخامسة والعشرين وأصغرهم في الرابعة عشرة. كان يوما أسود، وكان الناس يسيرون في الشارع يطاردهم الخوف. قتل مجاني مباغت عصف بثلاثة أرواح دفعة واحدة وكأنهم لم يُخلقوا إلاّ لحفلة القتل الكلبية هذه.

في ذلك اليوم لم يجرؤ أحد حتى على تعزيتي. "ثلاثة في ليلة واحدة يا قتلة! ثلاثة...!!". كنت أحدث نفسي والنار تكوي أحشائي من الغيظ. في اليوم التالي ذهبت إلى المسجد حيث صُفَّت التوابيت الثلاثة لجثث ثلاث زهرات قتلوا بطلقة في صدغ كل منهم. الصمت كان يلف قاعة الصلاة، والمسجد امتلأ عن بكرة أبيه بالمصلين، وكنت أقاوم دموعي مكرهاً.

صلينا عليهم وأنا أسأل نفسي، من هو الضحية القادمة؟ أيُّنا سيصلى عليه تالياً؟!

كانت الوجوه مكفهرة، والقهر قد بلغ الحلوق. أحد رجال البوليس الذين تولوا مهمة التحقيق في المجزرة، وكان أول الداخلين إلى المحل، أخبرني عندما سألته عن أسباب الجريمة؛ لم يؤكد لي شيئاً ذا بال، لكنه قال بلغة محايدة، لغة معدنية تفتقر إلى أدنى حدٍّ من الإحساس، لغة الخبرة وطبيعة العمل، "لم أرَ خلال حياتي الطويلة في البوليس مشهداً لدماء بتلك الغزارة". كان ذلك ذات فجر حينما بدأ زبائن الساعات الأولى بالتوافد لقضاء حوائجهم.

الذي دخل أولاً تم إسعافه إلى المستشفى بعد أن أُغمي عليه. كانت الدماء متجمعة مثل بركة جامدة لها رائحة نفاثة تبعث على الغثيان، وفي وسط تلك البركة الدموية تناثرت ثلاث جثث شابة، ثلاث حيوات فتية أُزهقت طمعاً في حفنه دولارات.

في ذلك اليوم كان الحزن مخيماً، في سماء "دكس"، وفي عيون الناس. انتهينا من صلاة الجنازة وتعاونا على حمل التوابيت الثلاثة وخرجنا بها لنضعها داخل سيارة دفن الموتى واتجهنا إلى المقبرة، كنا في الصيف والدنيا مكسوة بالأخضر الريان والأرض لا تزال ندية من بلل الشتاء الطويل.

وصلنا إلى المقبرة حيث كان في استقبالنا ثلاثة قبور موحشة. "أهذا أتينا؟!"، سألت نفسي تخنقني الدموع، "أهذه هي النهاية المحتومة للحلم الذي سعينا لتحقيقه وأتينا إليه بأقدامنا"!!

قبل أن نضع الصناديق في قوالب خرسانية، لحمايتها من رشح الماء الأبدي، فُتحت لكي نلقي نظرة أخيرة على القتلى، وكنت قريباً من القبور الثلاثة؛ وليتني لم أكن في تلك المسافة التي سمحت برؤية ثلاثة وجوه صفراء ضامرة نتيجة لنزفها دمها كله، وفي صدغ كل واحد منهم ثقب صغير لا يكاد يُرى، لكنه كان كفيلاً بإيصالهم إلى حيث هم الآن!!

لم أستطع تحمل الصورة التي وضعتها طلقات الذئاب أمامي؛ كانت وجوهاً بائسة، قُتلت غيلة دون شفقة. بكيت لكي أترك فرصة للنار المشتعلة في صدري بالخروج، بكى المشيعون حسرة على الفتيان والقامات الشابّة التي اقتطفتها أصابع الموت قبل الأوان.

كان مأتماً كبيراً ويوماً مفتوحاً للبكاء. وعندما ذهبت عصرية ذلك اليوم للعزاء، سمعت ورأيت الحزن يمشي أمامي. كان ثمة أمٌّ تبكي أحد الثلاثة، كان بكاءً شديد اللوعة والحرقة. دهمني الخوف واجتاحني شعور بالضياع لا حد له. إلى أين نفرُّ، نحن قطيع الحملان التي لا تدري لها اتجاها، والموت يحدق بنا من كل صوب!!؟

خرجتُ من بيت العزاء إشفاقاً ورهبة من هول الموقف، فمن يستطيع أن يمنع أمًّا من البكاء على فلذة كبدها، من أن تنوح على الأعز الذي لن يعود!؟

في تلك الليلة ذهبت إلى "ديبي" وقضيت الليل وأنا أنهش جسدها بحزامي الجلدي. كنت قد شربت حتى نسيت نفسي، لكنني ما نسيت وجوه القتلى الثلاثة؛ ضربتها حتى أوشكت على قتلها. لم تتكلم، فقط كانت تبكي بصمت. كان حقدي ماحقاً؛ تمنيت لو أنني أستطيع قتل الناس جميعاً في هذا العالم اللعين انتقاماً منهم.

كنت أرانا مثل أيائل برية، وهم الصيادون. سحبتها، المسكينة، من شعرها: "يا سليلة القتلة! يا أبناء القحبة! يا مصاصي الدماء...!". كانت تبكي بحرقة: "لماذا يا علي!؟ ما ذنبي أنا يا علي!!؟".

انهرت على الأرض مرتجف الجوانح، مهزوماً، مكسوراً حتى العظم، ورعب وحشي يطحنني، رعب من كل شيء، انتابتني نوبة قيء فتقيأت جوفي على نفسي وعلى "ديبي"، ثم شرعت في البكاء بكل ما أملك من صوت وبكل ما أشعر به من خوف وضياع.

فصل "مثنى" والكابوس الذي لم يرَ مثله من قبل حتى ايام الحرب

كانت الجثث تمشي أمامه في طابور عسكري منضبط؛ جثثاً مهترئة اللحم، مفقوءة العيون، تنبعث منها رائحة لا تطاق. وكان وحده في المنصة المصبوغة بالدم، ملوّحاً بيدٍ معروقة يابسة الأصابع.

كان ميداناً فسيحاً مليئاً بالجثث المتحركة، جثث بشرية، وجثث كلاب مفزعة الأنياب، والوقت شمساً ساطعة تجلد الوجوه المرعبة بشواظ من لهب. صمت لزج يحيط بالميدان، وجثث تمضي في سكون ميت.

كانت المنصة كبيرة، و"مثنى" وحده فيها، يرتدي بذلة عسكرية حمراء موشاة بجماجم صغيرة على شكل قلادات ونياشين مطرزة بالأظافر.

فجأة دهمته ريح عاتية أوشكت على اقتلاعه من مكانه. تشبث بكرسيه، استنجد بجيش الميتين فلم يسمعه أحد، رفعته الريح عالياً حتى غابت الأرض عن ناظريه، ومن حالق قُذف به، فأخذ يهوي بسرعة رهيبة وهو يحاول التشبث بأي شيء يمنعه من السقوط. صعقه ضغط خانق أخذ يضغط على جسده ويوشك على تمزيقه إرباً إرباً. صرخ متوجعاً، منادياً "حنّا"، الذي رآه يسير وحده والدماء تنزف من عنقه بغزارة، لم يلتفت إليه، بل واصل طريقه باتجاه هاوية لا يراها. صرخ منبهاً إياه، لكنه قبل أن يصرخ

ثانية انفجر جسده مثل كيس مملوء بالهواء، فتناثرت أشلاؤه في كل الاتجاهات على شكل ذرات من رماد.

"حنّا!". كانت صرخة عظيمة خرجت من حنجرته مثل بركان يصمّ هديره الآذان.

أُضيء نور الحجرة، وهرع "حنّا" لنجدته.

– هيه! "مثنى"، "مثنى"! لا تخف! أنت بخير.

استيقظ مرعوباً يتصبب عرقاً بارداً، وصدره يصعد ويهبط بشدة.

– كابوس فظيع يا "حنّا"، فظيع!

– اللهم اجعله خير!

قالها وهو يمد يده بكأس ماء.

– خذ، اشرب، ثم خبرني ماذا رأيت!

أخذ الكأس بيد مرتجفة. شرب الماء وأخذ يسرد له ما رآه في نومه المضطرب. و"حنّا" يستمع إليه في هدوء.

– لا عليك! الموضوع بسيط؛ لقد أفرطت في الشراب فدهمتك الكوابيس.

لم يقل شيئاً، رمقه بعينين مرعوبتين، واستلقى على فراشه يتمنى في قرارة نفسه أن ما رآه ليس سوى كابوس فعلاً وليس نبوءة رعب قادم.

فصل قصير لأحداث طوال ومنسية لم تدوّن أو تُقرأ لأحد

وعندما رأيت ما رأيت، صُدمت، وجفّت ينابيعي كما لـو أنني أصبت بجفاف كتابي. لم أكن في صنعاء ذلك الكاتبَ الكبير، كنتُ مثل طفل يتعلم أبجدية الكتابة، أعيش عالة على الآخرين، وعلى بعض ما أتحصل عليه من كتاباتي، وكذلك من معاش والدي الشهيد.

كانت حياة بائسة هربت منها إلى جحيم آخر اسمه "دكس"؛ حياة تشبه حياتي في صنعاء في ذلك الزمن الذي ولى إلى غير رجعة. وحينما رأيت ما رأيت وقفت عاجزاً عن التعبير، مثل شاهد أبكم وأخرس لكن له بصر من حديد. كل وقتي أسفحه بين الصحون والقدور، والأحداث تمر أمام ناظري لا أستطيع فعل شيء لتغييرها، وليس معي أصدقاء حقيقيون أتكئ بمخاوفي عليهم.

أدخل "دكس" كل يوم وأرى المجانين الذين كانوا فتياننا مفعمين بالنشاط والأمل، مشوا في نفس الطريق التي أسير عليها الآن. أراقب المقهى الذي يتجمع فيه أبناء بلادي لقضاء أوقاتهم في لعب الورق استهلاكاً للوقت الذي يُصرف من أعمارهم لا يُلقون له بالاً.

كنا شيعاً، اللبنانيين والفلسطينيين والعراقيين والمصريين والمغاربة والجزائريين، وطلاب جامعة ميتشجان من السعودية وعمان والكويت والبحرين، الذين كانوا يهبطون علينا من جامعتهم لتناول الطعام العربي ونحن اليمنيين، خبراء المنافي العظام، وجياد التيه الكبير منذ أول الخليقة، كلاً في عالمه الخاص.

أطفال لم يبلغوا الحلم غزاهم الشيب مبكراً بعد أن انغمسوا في حياة الليل؛ مخدرات، سطو، تزوير، وأشياء كثيرة لا يعلمها سواهم، ثم يُقتلون لا تدري من قتلهم. وفتيات صغيرات يهربن من الظلم والقهر والزيف مع أول عشيق ويتركن آباءهن لعار الفضيحة.

أدخلتني "ديبي" عالماً لم أكن أراه إلا على شاشات السينما، ليالي طوالا في تدخين الحشيشة والرقص والخمرة والجنون؛ لتأتيني بعد ذلك وتخبرني بأنها حامل!

كانت بشارة صاعقة، فما أتحصل عليه من العمل كمغسل صحون حقير وابن حرام، يكاد لا يكفيني للعيش المناسب الذي يليق بكلب أمريكي، ثم هاهي ذي المرأة التي تحبني وتصر على ذلك تأتي فرحة لتخبرني بحملها. ثرت، توعدت، ضربتها، أمرتها ورجوتها أن تسقط الجنين وتتخلص منه؛ لكنها كانت قد صممت على الاحتفاظ به. "أريد بيبي يا علي!". كنت أخشى أن تضع أنثى فتسير سيرة أمها الأمريكية، وذلك ما لا أرضاه.

تهربت منها، لكنها طاردتني في كل مكان أذهب إليه، بهدية جديدة، بابتسامة ساحرة، بدمعة سخية، وبحب يزداد توحشاً لي.

كنت أشعر بوحدة عميقة بين أبناء بلدي، وحدة لا تطاق. وحدها "ديبي" من كانت إلى جواري دائماً، فتاتي الحلوة التي أحبتني كما لم يحببني أحد من قبل، لكنني كنت دائماً ما أخونها مع أخريات.

زُرت الحانات، وأطلت شعر رأسي، تقلدت السلاسل الذهبية والقلادات وعلقتها على عنقي، وملأت أصابعي بخواتم الذهب والفضة، ونمت على الأرصفة حينما كان يتعتعني السكر. لم أجد من يردعني أو يذكرني من أين أتيت ولماذا، لا قريب ولا صديق، كأنني أعيش وحدي في مدينة خطيئة صُنعَت خصيصاً لي.

وضعت "ديبي" حملها، وكان ولداً، فرحت لأنه لم يكن بنتاً، كان يشبهني، ما عدا العينين فقد كانتا لأمه. "ابننا يا علي!". كانت شديدة الفرح، اشترت له ثياباً كثيرة وألعاباً ما كنت أستطيع شراءها ولو بعد خمس سنوات من العمل المتواصل في المطعم. كانت قد عرّفتني بأمها "كاثي"، وأخيها "جيسن"، لكنهما نفرا مني، وبادلاني كرهاً ظالماً لا إنصاف فيه. "ألم تجدي غير راكب الجمل هذا لتحبيه!؟".

لكنها كانت تدافع عني بقوة، وتعلن أمامهما أنها لن تتركني أبداً مهما كان الأمر.

أحبّتْ الجدة حفيدها وأولته عنايتها، كانت في غاية الفرح بمجيئه، فرح حقيقي بقدر الكره الذي كانت تكنه لي.

صار له من العمر سنتان، ولدي الذي أسمته "كاثي" "مايك"، على اسم أخيها الذي قتل في فيتنام، وأسميته أنا "محمد" كنوع من الاعتذار لوالدي الذي لو رآني في حالتي العبثية تلك لتبرأ مني على الأشهاد. وكلما مر الوقت الأمريكي بمجنزراته الفولاذية على ظهري ازدادت مصاعبي ومصائبي، حتى طُردت من المطعم بعد معركة طاحنة مع أحد العمال الجدد حاول التحرش بـ"ديبي"، لكنني رغم ذلك لم أحتج إلى المال، فقد كانت حبوبتي، كما كنت أسميها، تمدني بما أحتاج إليه.

حبوبتي التي كانت تأتي إلى حجرتي في "دكس" التي تشبه مقلب قمامة، وتقوم بتنظيفها وترتيبها، وتقضي الليالي في سريري. "أحبك يا علي! لو تركتني فسوف أموت". بينما كنت فظاً معها، أضربها لأتفه الأسباب، خصوصاً حينما أكون سكراناً، لكنني عندما أستيقظ في صبيحة اليوم التالي وأرى الكدمات تشوه وجهها الجميل، أشعر بالخجل، فأعتذر منها وأدعوها

إلى الثأر مني، أدعوها جاداً إلى ذلك. "أوكيه! أغمض عينيك". أفعل تتملكني قناعة تامة بأنني أستحق أن أضرب بحذائها جزاءً لدناءتي، وبدلاً من أن تصفعني تقبّلني على وجهي، تقبلني برقة صاعقة، تقبلني وهي تبكي رغم ابتسامتها المشرقة في وجهها الحبيب.

وتتمسح بي مثل قطة وديعة "إنني أحبك يا علي، والقلب المحب مسامح بطبعه".

لم تكن بليدة الإحساس، لم تكن أسيرة لشهوتها، ملاكي الشهي، بل كانت عاشقة أفناها العشق. "أتحمل يا علي، وأصبر عليك، لأنني معك أشعر بوجودي رغم قسوتك، فأنت رجلي ما حييت".

في إحدى المرات قررت أمها السفر إلى فلوريدا في رحلة ترفيهية، وأصرت "ديبي" عليها أن تأخذني معهم فرضخت في نهاية الأمر مكرهة، لأنها هددتها بالبقاء معي وكذلك "مايك" الصغير. وذهبتُ، وهناك رأيت الخيال في كل شيء. "أين كنت أعيش يا عالم!؟". طبيعة خلابة وشواطئ تأخذ الألباب ونساء ليس لهن نظير.

مرت فترة طويلة وأنا متعطل عن العمل، أقضي وقتي في لعب البوكر، والسكر ليلاً، والنوم نهاراً، حتى وجدت عملاً في ورشة صغيرة لتعبئة المياه الغازية، فالتحقت بها، كان الدخل قليلاً، لكنه "أفضل من لا شيء". وفي تلك الورشة ابتدأت فصلاً جديداً من المعارك والمتاعب والآلام.

لا أستطيع نسيان ذلك اليوم الذي تزوجت فيه من "ديبي". أعترف أنه كان زواج مصلحة، فبالزواج وحده أستطيع البقاء في أمريكا دون مضايقة قانونية ومطاردة من رجال الهجرة القساة. وقد كان ما أردت، وتزوجت من "ديبي"، التي حينما أخبرتها بنيتي في الزوج منها كادت أن تطير من الفرح.

ورغم معارضة الأم الشديدة وكذلك أخيها، وتهديدهما بمقاطعتها، إلا أنها لم تعرهما أي اهتمام. وعقدت قراني عليها بعقد إسلامي، ثم ذهبنا إلى الكنيسة إرضاءً لها.

كنت وحدي ليس جواري في ليلة زفافي رفيق أو صديق. وعلى الرغم من تهديد "كاثي" بعدم حضور حفلة الزفاف ومعارضتها للزواج من أصله، إلا أنها، حباً لابنتها، رتبت حفلة مناسبة دعت إليها كل أصدقائها وأقاربها، ليس ذلك وحسب، بل لقد تكفلت بدفع المصاريف كاملة، من بذلة السموكينج التي ارتديتها، وكذلك ثوب زفاف "ديبي"، وصولاً إلى دفع إيجار القاعة وحجز جناح كامل في أحد الفنادق ذات الاسم الرنان الطنّان.

كانت "ديبي" مثل فراشة فرحة بثوب الزفاف الأبيض. التقطنا الصور التذكارية، فتحنا قوارير الشمبانيا، رقصنا حتى بعد منتصف الليل، وفي جناحنا الفخم التهمتُ "ديبي" كما لو كانت أول مرة أفعل ذلك.

في البدء لم أكن أحبها، كان يعجبني جسدها الريان؛ لكن مع مرور الأيام أحببتها بكل ما في قلبي من حب، ولم أكن أتخيل نفسي بدونها، لقد أسرتني وسرقتني من دون أن أنتبه لذلك، وقد أحسنت صنعاً، فبدونها الله وحده يعلم بأي حال كنت سأكون.

فصل "مثنى" في نيويورك أول مرة يمشي لا يدري خاتمته المتفحمة الأطراف

لم يقصر "حنّا" في حق "مثنى"، حتى قام من مرضه الذي أقعده قرابة الثلاثة أشهر، نتيجة لسباحته في مياه باردة حتى يستطيع الدخول إلى نيويورك. تعافى أخيراً بعد أن تفنن "حنّا" في تغذيته؛ أتى له بطبيب كان يعرفه كزبون في كشك السجائر والخردوات الذي يملكه، ذلك الطبيب الفخور بألمانيته إلى درجة لا تطاق.

أحياناً كان "حنّا" يشعر بالضيق من "مثنى"، فهو لا يعرفه ولم يره من قبل حتى في أتعس الأحلام، ومع ذلك وجب عليه الاعتناء به وتمريضه والصرف عليه. "لكن إلى أين يذهب هذا المسكين!؟". كان ذلك السؤال يعيده إلى طبيعته الطيبة. وكان "مثنى" نعم المريض، لا يشتكي ولا يئن ولا يطلب شيئاً، وعندما بدأ يتعافى قليلاً، كان "حنّا" يجد، عند عودته إلى الشقة الضيقة المؤلفة من حجرة نوم صغيرة وصالة متصلة بالمطبخ وحمام في حجم علبة الكبريت، ثَمَّ طعاما مطبوخا على الطريقة اليمنية، مرقة لحم العجل، وأكلات متعددة. وذات يوم طلب "مثنى" منه إحضار طحين، وصنع له عصيدة، كانت المرة الأولى التي يذوق فيها "حنّا" عصيدة بالمرق والسمن في حياته.

تعافى "مثنى" وبدأ في التعرف على نيويورك، فقد أخذ "حنّا" يخرجه

معه إلى الحدائق في ذلك الربيع البديع، وإلى الملاهي، وكذلك أخذه ليشاهد تمثال الحرية عن قرب، ذلك التمثال الشاهق الارتفاع في جزيرته الصغيرة مثل مارد جبار يطعن بيمناه كبد السماء. ركبا الترام، وسارا في الشوارع الضاجة بالحياة، كانت مدينة عجيبة، يوما في الحي الصيني وآخر في الحي الإسباني، وأحياناً في أحياء السود.

مدينة مترامية الأطراف، مدججة بجسور الحديد العملاقة والعمارات الهائلة الطول.

في تلك المدينة قُتل "مثنى" قتلته المفزعة، لم يكن يدري أن الموت ينتظره آخر الطريق، وكذلك "حنّا" الذي لحقه مذبوحاً، وكأنهما لم يخلقا إلا لموت أعد بإتقان لا يليق إلا بهما.

سار "مثنى" في نزهات متواصلة حتى أتى اليوم الذي أخذه "حنّا" فيه إلى مطعم "لويجي" المجنون ليقبله كعامل عنده.

فصل وجوه في المهب حطمتها ريح نكد وعثرات كبار

السلطان

كان سلطان أهل زمانه، طويل القامة، عريض المنكبين، ممتلئ الجسم، له شارب كثيف ووجه مدور، يتميز بوسامة وقورة، ويحب النساء؛ لكن الزمان انقلب عليه. "زمان غدار يا وجوه الخير!".

كان يمشي في الشارع بثوبه العربي وعصاه السوداء كمليك مخلوع. "قامت الثورة في الجنوب وطردت الإنجليز وطردتنا معهم بنت أيري(*)، فسافرت إلى السعودية ثم أتيت إلى أمريكا كلاجئ".

كانت هذه قصته التي لا يمل من ترديدها. عند ما رأيته أول مرة لم أظن أن قامته الهائلة ستذوي، وأن البريق سيخبو في عينيه القويتين، وأن الشلل سيعصف به مثل ورق جاف. "تزوجت كثيرا من النساء، ولي عشرين ولدا وثماني بنات". رواية طويلة يرددها بحكم العادة. "لكن يا سلطان قد كبرت في السن ولا تزال تلاحق الصغيرات".

يعايره رفاقه محاولين إحراجه، لكنه يراوغ منهم بدها: "ويش أسوي؟! تعودت عليهن، أصبحت عادة، وقطع العادة عداوة، كما يقولون!".

(*) المقصود ثورة أكتوبر في جنوب اليمن، ما كان يسمى "اليمن الجنوبي" بعد الاستقلال، وقبل قيام الوحدة اليمنية وهو هنا يقصد رجال السلطة التي تولوها بعد خروج الاستعمار البريطاني وليس الثورة.

رجل متدين يصلي ويصوم، ويطارد الفتيات الصغيرات مغروراً بهن بوفرة المال. حينما كنت أحادثه أو أسلم عليه من بعيد أثناء لقائي صدفة معه أحسه عصياً على الموت، كان مقبلاً على الحياة، مع أنه قد تعدى الخامسة والسبعين من العمر، لكنه كان يبدو كما لو أنه لم يتجاوز الأربعين. "قضيت بالطول والعرض عمري، وعرفت نساء من كل لون وجنس وملة". كان يكابر، فقد تفرق أولاده في كل اتجاه، وبقي وحده، يؤنسه ظل قديم لمُلك غابر لن يعود.

كان يذوي كل يوم، مثل سنديانة ماتت عروقها. شرههُ قضى عليه، فقد كان يحب الطعام كثيراً، رغم تحذيرات الأطباء له من الإفراط، نظراً لإصابته بالسكري. ثلاثون عاماً في ديترويت قضاها كلاجئ ولم يتعلم أي صنعة، معتمداً على النزر اليسير الذي كان يأتيه من الحكومة الأمريكية، وهاهو الآن مشلول كسيح.

ذبلت عيناه وضمر جسده الذي كان قوياً. وعندما أدركته الأيام وأحس بأنيابها في كبده وتخلى عنه الأصدقاء، ذهب بنفسه إلى دار العجزة، وهناك مات في صمت ولم يعلم مخلوق بوفاته.

دفن بدون صلاة، فقد أمرهم ألاّ يخبروا أحداً بموته. دفن دون مشيعين، مجرد جثة باردة تقاد إلى أبديتها دون دمعة مجاملة أو لفتة حزن.

دون جوان

انفتحت أمامه بوابة الرزق، وهو القادم من أعالي جبال منسية في وطنه، بالكاد يستطيع كتابة اسمه بالعربي. ربح ورقة يانصيب بقيمة مبلغ ضخم استثمره جيداً في محطة بنزين ودكان لبيع الخمور ومحل بيتزا.

شاب ثلاثيني العمر، متوسط القامة، مغامر، جرب كل شيء غريب. كان مرحاً، مفتول العضلات، كثير المال والنساء، لكنه أبطأ في العودة إلى الوطن، تأخر أكثر من اللازم، سحرته فتيات ميتشجان الباهرات الجمال، نسي ناسه في قريته وراء البحار باتجاه الشرق، حتى أصيب بطعنة حطمت بضربة واحدة كل ما جمعه من مال، كل الأحلام، هيبته، عضلاته المفتولة التي كان يسحر بها الفتيات.

كان له أب عجوز وأمٌّ وزوجة. نسي الأم والأب في غناه، وهجر الفَرَسَ التي كانت تتحرق شوقاً لرجعته، فاض بها الكيل بعد تسع سنوات لم يرسل لها حتى رسالة، بدأ الناس يتحدثون، الناس القادمون من شاهق الجبال، جبال النميمة والحقد والحسد والفقر، حيث تعيش تلك المرأة التي أحبته وانتظرته ونسيها وتركها تأكلها نيران الحاجة إلى أنيس يصهر جسدها الفتيّ.

لم يصدق بادئ الأمر، ظن أن ثمة دعاية أو وشاية مغرضة أطلقها الحاقدون. "هل معقول!!؟". لم يظن حتى في أتعس أحلامه أن زوجته قد تخونه، قد تسلم جسدها لغيره، لأي شخص يقرع النافذة ذات ليل. بدا كمن استيقظ من سبات طويل، وأخذ يتذكر الرسائل والأشرطة الصوتية التي كانت تصله، وتخبره بشوقها إليه وأنها تنتظره. "ارجع! لم أعد أستطيع الصبر أو المقاومة!!".

لم يُلقِ بالاً لكل ما كان يسمع. "آكلة، شاربة، تلبس أحسن الثياب، ماذا تريد أكثر من هذا!!؟". حتى وقعت الواقعة، عندما وصلته رسالة قصيرة حاسمة من أبيه "طلقها يا ضائع، فقد أصبحت سمعتنا في الوحل، طلقها يا أنذل الرجال! أما أنا فقد تبرأت منك من اليوم إلى يوم الدين!".

أُسقط في يده، كان يراها في منامه وعلى شاشة ذكرياته، كيف كانت جميلة ورقيقة وشديدة الخجل لا تكاد ترفع رأسها أمامه! وهاهي الآن مضغة في أفواه الناس. "كيف سقطت زوجتي؟! وأي ابن قحبة أغواها؟!". لو أن أمّه فعلتها لما أصيب في مقتل.

مزقه الندم. "لقد تحمّلت المسكينة كثيراً!". كان يعترف لنفسه بحرقة كاوية؛ صبرتْ، توسلتْ، نادته بالعودة، ولم يسمعها، عن قصد أبله وتساهل مُخنّث، حتى سقطت في المستنقع، كغيرها من بعض النساء اللواتي تركهن أزواجهن ليلهثوا وراء المال في الغرب البعيد. "أنا السبب! انا ابن ستين مليون قحبة، وليس هي!!".

أخذ يتحاشى كل من يعرفه، لم يعد ذلك الفخور بعضلاته، وهو الـ"دون جوان" المخدوع، ولا بسيارته الفارهة، ولا بثيابه وقلائده الذهبية أو شقته الفخمة، أصبح مجرد رجل خانته زوجته، وهو المباهي بفحولته وإيقاعه بالنساء. نار العار كانت تطعنه بلا شفقة، وعندما جُنَّ كان يخبر المارة أن زوجته تفعلها مع "الرُّباح"(*).

هرب إلى الخمرة، وأسرف فيها كمن ينتقم من نفسه ومن زوجته وأهله وبلاده. أهمل مصالحه حتى أفلس وكثرت ديونه، تعاطى الكوكايين وكل أرخص أنواع المخدرات، كان يسعى إلى دماره الشخصي بوعي مفزع بالنتائج، يجلده شعور ماحق بالذنب، يقضي ليالي طوالا في غيبوبة وبكاء.

(*) "رُباح": جمع "رَبح"، وهو القرد.

وذات يوم خرج على الناس عارياً إلا مما يسد عورته، حافي القدمين، بعد سماعه نبأ إفلاسه رسمياً وبيع كل ممتلكاته في المزاد العلني لتسديد ديونه، كانت القشة التي قصمت ظهره الجريح، وانضم إلى قافلة مجانين "دكس"، ممزق الثياب تفوح منه رائحة خمرة رخيصة.

"دكس" وجه آخر لأحداث مخيفة، أسطورية الوقائع رغم عاديتها المستفزة إلى حد الجنون وتكرارها كل يوم بعبثية فاضحة عميقة الإذلال.

وقد كان هو، وليس سواه، أحد أبطال هذه الأحداث التي التفَّتْ حول عنقه بإحكام أنشوطة فضيحة لا يستطيع منها فكاكاً.

يهوي إلى القعر دون أن يسنده أو يقف إلى جواره أحد، محطم الأسنان هزيل الجسم، يعبر الشوارع مرعوباً مثل خيال يخاف على نفسه الضوء ونظرات التشفي المهلكة.

المجنون الكاتب

كان يمشي وفي يده شنطة ويضع على عينيه نظارة بدون زجاج، نراه في الصيف ويختفي في الشتاء. في ١٩٦٥ هاجر إلى أمريكا وهو لا يزال في مقتبل العمر، ممتلئا حتى أطراف شعر رأسه بخطط نجاحات لم يسبقه إليها أحد من أبناء قريته.

التحق بشركة "فورد" لصناعة السيارات. "تعالي وأنا سوف أحرقك بنار المرسيدس وعفاريت البال مال!(*) ". دائم الهذيان بما لا يعقل من كلام، وعندما يدركه الصمت يسأل عن دولار واحد لا غير. "شي معك دالا أطرحها تحت السوكيري(**)".

قيل إنه كان شجاعاً وذكياً وماكراً في الإيقاع بالنساء، وكان سكيراً لا يشق له غبار، ينام في أي مكان عندما يدركه السكر، في الشارع في السيارة في البار قرب المقبرة وفي أي كارثة تقابله. ذات مرة ادّعى الجنون في محل عمله حتى يحال إلى التقاعد ويرتاح من الشقاء بين الحديد والنار، وقد أتقن دوره تماماً، أكل برازه أمام الأطباء، عوى مثل كلب، وأظهر سوأته في العمل وهو يضحك. لم يكن أول من حاول ادعاء الجنون، لكن حظه كان أتعسهم، فقد أثرت على عقله العقاقير التي كان يتجرعها غصباً عنه في المستشفى، وقد نجح في مسعاه، أُحيل إلى التقاعد مع معاش حقير وبدون عقل.

دائماً ما يذرع "دكس" جيئة وذهاباً، بتوتر كفيل بإقلاق شعب بأكمله، يحدث الفراغ أمامه بدون صوت، ليس له هدف محدد، كما لو أنه يهرب من

(*) بال مال: سجائر رخيصة.

(**) السوكيري: بطاقة حكومية يحملها كل المواطنين والمقيمين داخل أمريكا، وتعني نظام الرقم الوطني. دالا: دولار.

نفسه. كان يخرج من المصحة النفسية مرتب الهندام، نظيف الوجه، وحينما ينبت شعر لحيته وتتسخ ملابسه ندرك أن أوان عودته إلى المصح قد أزف. لم يكن يترك حقيبته الجلدية من يده أبداً. وعندما يتناول الطعام أو يرتشف قدحاً من القهوة يخرج أوراقه من شنطته ويبدأ في الشخبطة، كلمة "الله" هي الكلمة الوحيدة المعقولة في هذيانه الكتابي. أما بقية السطور فهي عبارة عن أشكال وخربشات معقدة لا تؤدي إلى أي معنى.

له ولدان وبنت. أحد الولدين قُتل بلغم لا يدري من زرعه في الطريق، بينما تزوجت البنت والولد الآخر. كذلك تزوجت الأمّ بعد أن طالت غيبته وراء البحر.

كان يمضي في ليالي "دكس" مثل الشبح، يصرخ ويشتم ويلعن، ثم يأخذ في الضحك، بعدها يخلد إلى سكون عميق يدوم أياماً عديدة.

مر العمر، ونبتت أجيال جديدة مثل نبات الفطر. وحده يأتي ويغيب دون تغيير يذكر، يحمل نفس الشنطة ونظارته المحطمة.

امرأة زرقاء قالت إنه كان عشيقها المفضل وأنها كانت تحبه؛ "لكن هؤلاء العرب يصابون بالجنون، لا أدري لماذا!". كانت له حياته المثيرة في الماضي، كباقي الزملاء من أبناء جيله الذين توفي بعضهم قتلاً أو ذبحاً، وأدركت البقية منهم رحمة التوبة. لم يكن ليترك شنطته أبداً، وإن أزعجه الصغار أو حاولوا مضايقته يتصل بالبوليس، الذين يقبلون سراعاً وعندما يدركون عاهته العقلية يعودون أدراجهم منذرين الصغار بعدم إزعاجه مرة ثانية.

مر العمر ولم يتغير "دكس" مرجل عثراتنا الكبير وجحيم أيام لم نعد نحسب لها حساباً، ظل مثل حقيقة مؤلمة لا تقبل التغيير. والمجنون الكاتب يذرع الأرصفة في انتظار شيء لا يدريه ولن يأتيه أبداً.

الذي أخذته صاعقة القتل

طول الوقت وهو يناجي السماء بيديه، أو كما يبدو يكلم نفسه بصوت لا يسمعه سواه. يُروى عنه أنه كان مثالاً للتوسط في كل شيء، وأنه أحد الأوائل الذين اشتروا سيارة جديدة عندما كان شراء السيارات عيباً لا يغتفر ودليل الانزلاق إلى هاوية الضياع، وحده من شذ عن تلك القاعدة.

لم يعلق على صدره سلاسل وقلائد ذهبية، لم يجاهر بفسوقه كما هو السائد آنذاك أوائل السبعينيات، قليل الكلام ثقيل الصمت. كل عامين كان يسافر إلى الوطن حيث يقضي ستة أشهر ثم يعود إلى عمله، تمضي به الحياة بقناعة وكأنه كان يُعدّ إعداداً هادئاً لجنون قادم لن يرحمه.

ففي إحدى العصريات، ذات صيف بعيد، أقبل أحدهم وكان ثرثاراً بغيضاً وأحمقاً كبيراً، إذ أخبره بالحادثة التي وقعت على مرأى من عيون الناس الخائفة

- هل سمعت!؟

- ماذا؟!

- ما حدث في البلاد قبل يومين!!

انتفض قلبه وامتقع لونه.

- أيش حصل؟!

خرجت من فمه جافة كما لو أدرك أنه سيغادر بعد ثوان معدودة باتجاه غيبوبة ذهنية لا عودة منها.

- الحكومة(*) قتلت والدك وابن عمك وإخوتك الثلاثة!!

لم ينطق، غارت عيناه وشحب لونه، وقيل إن آخر ما نطق به قبل أن يدهمه الجنون "مش معقول!".

مرت الأيام وسقط القتلة بنيران بعضهم البعض، بينما لا يزال هو يخاطب السماء بإشاراته العجماء التي لا تُفقه وليس لها ترجمة محددة.

(*) المقصود هنا الحكومة اليسارية التي حكمت جنوب اليمن في السبعينيات، وكانت تقوم بتصفية خصومها من الأعيان والمشائخ والمواطنين الذين لا يتفقون معها أيديولوجياً.

المريض

"يا ألله خذني وارحمني من هذا العذاب!". من رآه ولى منه الأدبار. جثة آدمية لها من العمر ثلاثون عاماً، مثخن بالقروح المتقيحة، تفوح منه رائحة لا تطاق، يعيش وحيداً في غرفته المزحومة برائحته الآدمية المنتنة، يرى بعينيه جسده يتداعى أمامه.

عندما سمع تلك الجملة من طبيبه المعالج "أنت مصاب بالإيدز"، لم يخبره بأنه خلال الشهور الثلاثة القادمة ستنتشر الدمامل في سائر أنحاء جسده، وأنه سيصاب بالصمم أولاً، ثم العمى، وأخيراً سيفقد سيطرته على عقله، وأنه سيموت وحده ليس بجواره من يواسيه.

لو أنه أخبره بذلك لكان قتل نفسه قبل أن يهترئ جسده وتنبعث رائحته. لم يعلمه الطبيب بشراسة دائه؛ شفقة به، وأنه أصيب بالإيدز الأسود السريع الفتك والذي لن يمهله فترة طويلة للعيش.

كان ميتاً يمشي على قدمين، ابتعد عنه أصدقاؤه، لفظه "دكس" حيناً الأميركي الذي لا نمت إليه بصلة ولا يريد أن يعترف بنا، مثل غرباء في محطة منسية ومجهولة ليس لها عنوان، كما يُلفظ الحيوان الأجرب، وأنه عندما يموت سيغسل بواسطة خرطوم مائي عن بُعد، خشية من رائحته ومن قروحه المتنفخة، وأنه لن يسير في جنازته سوى مسؤول الصحة المحلي وسائق سيارة إسعاف بدين أخذ يلعب بأنفه طيلة عملية إجراءات الدفن.

كان مثل أي شخص في "دكس"، كثير التنقل بين الأعمال، اشتغل في مطعم، في دكان، في محطة بترول، وأخيراً عاطلاً عن العمل. ثم إنه سيلتقي بإحدى صديقاته القديمات، إحدى الصديقات الرخيصات اللاتي يفعلنها مع من يدفع المال، وهي التي ستقدم إليه موته على سرير مبلل بعرق جسديهما الفائرين.

كان يحب الغناء ويعزف على آلة العود، تلك الآلة التي بقيت معه حتى أدركته المنية بعد عذاب هراه حتى أعماق روحه.

مر يومان كاملان حتى اكتشفت جثته وحتى عُرف موته. تحاشاه جميع الناس وتهربوا منه. كره نفسه وتمنى العودة إلى الوطن كي يموت هناك، لكن لم يكن معه ما يكفيه من المال، وهو الذي كان يصرف ما يحصل عليه أولاً فأول. حاول الاستدانة، لكن من هو المجنون الذي سوف يدين رجلاً ميتاً لا يملك شيئاً؟! ولذلك فقد مات بسرعة كما كان يدعو ربه أن يعجل له بذلك.

وجدوه مبطوحاً على وجهه خلف باب حجرته مباشرة. كان يطلب النجدة، يحاول أن يجد من يواسيه في موته، فلم يستمع إليه مخلوق. وحينما كان صوته يعلو في ليالي الألم لم يكن يُستجاب له كما لو كان ينادي في عالم أقفر من ساكنيه. "ارحموني!".

في تلك الليلة التي مات فيها كان يُسمع بكاؤه ونحيبه في جميع أنحاء العالم، كان بكاءً مُرًّا وكان ينادي أمه وأباه، وزوجته، تلك الفتاة التي لم يهنأ معها بما فيه الكفاية، وكلما اشتدت عليه سكرات الموت يرتفع صوته ممزقاً كسيراً "سامحني يا رب! سامحني يا الله أنا فدى لك! غلطت ومنك السماح، ارحمني أتوسل إليك! يا أمي ابنك وجيع يموت وحده وما احدش جنبه!".

قضى ليلته الأخيرة يبكي وينادي أحبته البعيدين. ليل طويل من الاحتضار والاحتراق خوفاً وندماً. وعندما حل الفجر كان قد أخلد عنوة إلى جبروت السكون بعد أن استل منه الموت شعرة الصراخ ودودة الروح.

فصل "مثنى" وسط المدينة التي بعثرت رماده في كل الاتجاهات

ثم إن "مثنى" أخذ يسير في شوارع مدينته الجديدة ورأسه إلى الأعلى، يحملق في البنايات الشاهقة لا يدري ماذا ينتظره تحتها وبجواره يمشي "حنّا" صامتاً يدخن.

فصل عندما صرت عاملاً في ورشة بنت ستين ألف مليار كلب

كانت ورشة عادية تقوم بعملية تبعئة قطع (كنت قد تركت شركة المشروبات الغازية بعد معركة طاحنة) غيار السيارات وتغليفها. ومن حسناتها أنني تعرفت فيها على أصدقاء جدد، أصدقاء متعبين مثلي، أشبههم ويشبهونني في عثرات كثيرة وسوء تصاريف لا تُعد ولا تُحصى، تأكلهم وحوش الحنين والحاجة، أحدهم كان "قاسم"، الفتى الصامت، الذي إذا ما تكلم يصلينا بنار قهره العظيم. "قتلتني الديون يا علي، الموت أشرف من عيشة كهذه!".

كانوا أصدقاء طيبين يرضخون سريعاً لتهديدات الزنوج المفتولي العضلات؛ "نريد المحافظة على أعمالنا ومصدر رزقنا ورزق أطفالنا"، لكنني ما هادنت، وخضت معارك كثيرة ضَربت فيها وضُربت، كانت حرباً مفتوحة لا قواعد لها إلا قاعدة واحدة، الاستمرارية في الحرب والدفاع عن النفس، مهما كان الثمن، فليس هناك خيار آخر أو حلول وسط؛ إما غالب وإما مغلوب، وهذه قصة أخرى، حرب يومية ليست لها نهاية.

ذات يوم أخبرني "قاسم" عن حصوله على عمل جديد في محطة بنزين، وأنه سيترك الورشة ليذهب إليها، لأن أصحابها يدفعون أكثر.

— لكن العمل في المحطات شديد الخطر، خصوصاً في الليل!

نبهته إشفاقاً عليه، ولو أدركت للحظة واحدة أنني سأواجه نفس الظرف الذي واجهه لفررت بعيداً، بعيداً جداً، إلى آخر نقطة في العالم.

- يا أخي في ستين ألف داهية! أريد أن أفك الدين عن رقبتي وليحدث ما يحدث!

وذهب، ولم ينقضِ شهر واحد حتى كنت أحد المصلين على جثمانه.

كنا نتساقط مثل أوراق الخريف أمام عواصف هوجاء ومجنونة، وقد بكيت مصيره، وهو الشاب الكثير الطموح، الفتى الذي كان يجعل الدموع تغرورق في عيوننا حينما يأخذه الحزن والغناء؛ كان له صوت شجيّ يذكّر بـ"أيوب"(*):

"بالله عليك وامسافر

لو لقيت الحبيب

بلغ سلامي إليه

وقُل له كم با تغيب؟!".

فنلزم الصمت موشكين على البكاء، والآن ها هو قد قُتل خنقاً بسلك تلفون بعد أن كُتفت يداه إلى الخلف؛ مات ولم يقضِ دينه بعد.

عندما علمت بنبأ مقتله بكيت، ورفضت العمل، وضربت المسؤول عن نوبة العمل، الذي بدا لي شامتاً ومتشفياً، وكأنَّ "قاسم" قد ناك أمه وزوجته وكل أهله ابن الزنا، فتم فصلي. وحينما عدت إلى البيت انتقدتني

(*) أيوب: أيوب طارش، مطرب يمني شهير. والمقطع من أغنية شهيرة لنفس المطرب.

"ديبي" لأول مرة في حياتها، فضربتها أمام ابننا "محمد" الذي علا صراخه ورعبه وهو يشاهدني أفتك بأمه أمام ناظريه.

كنت قد عدت سكراناً مقهوراً على مقتل صديقي، فجعلت عالي البيت سافله. كان وضعاً لا يطاق، كما لو كان كابوساً طويلاً لن ينتهي، "ديبي" تبكي في زاوية، وأنا أبكي في أخرى، و"محمد" يبكي بيننا. في تلك اللحظة فكرت... كنت أفكر جاداً لأول مرة في حياتي بالانتحار.

فصل قبس من حياة "حنّا" البحّار ابن البحّار صاحب الحفا الأعوج

"كان البحر يستهويني دائماً، وكنت أرى فيه خصماً عنيداً لا بد لي من قهره، منذ أن رأته عيناي وأنا أكنُّ له إعجاباً مشوباً بحذر وخوف، كنت أتخيله رجلاً نائماً منذ أول الدهر، اقتحمته مرات ومرات في طفولتي، كنت أسبح حتى يغيب الشاطئ عن ناظري، في محاولة مني -كما كنت أظن- لقهره، لكن من يقهر البحر يا بو يمن!؟".

كان "حنّا" يقص على "مثنى" قصته في تلك الأمسية المنعشة من إحدى أمسيات الصيف التي لا تتكرر. و"مثنى" مطرق، يستمع بصمت. كان يحدثه عن ماضيه، بينما هو يسبح أيضاً في ماضيه البعيد، الماضي الذي تركه وراءه: تسلق الجبال ورعي الأغنام أيام "العلاّن"(*) و"صياد"(**) وحكايات الأماسي التي تبدأ باكراً والفاقة المشتعلة في البيوت.

"كان والدي صياداً، وكان الصيادون يطلقون عليه لقب "أبوحديد"، نظراً لضخامته وشدة بأسه ومواجهته لأحلك المواقف برباطة جأش وشجاعة نادرتين، وعلى الرغم من أنه لم يكن يعتدي على أحد، إلا أنه كان مهاب الجانب، يحظى باحترام رجال الميناء جميعاً، فقد كان نعم الصديق، ويجدونه دائماً إلى جوارهم، ما تراجع أبداً عن مساعدة من يطلبها منه، حتى الخمرة لم

(*) العلاّن: أواخر الصيف .
(**) صياد: جنية في الأساطير اليمنية.

يكن يشربها، لأنها تضيع هيبة الرجال، كما كان يقول. ولأن البحر شديد التقلب والزمان ليس له صاحب، فقد قُتل والدي في إحدى رحلات الصيد عندما هبّ كما هي عادته، لإنقاذ أحد زملائه، فقد علقت يد ذلك التعس في حبل الشراع حينما كان يحاول نشره أمام ريح مواتية، فخطفه الحبل بسرعة خاطفة إلى الأعلى، وقد حاول والدي فك أسره من ذلك القيد الجهنمي، لكن أيامه كانت قد انتهت في ذلك اليوم، ويبدو أنه فقد توازنه أثناء صعوده على الحبال، فهوى من شاهق ولقي مصرعه على الفور. كان عمري آنذاك قرابة الثلاث عشرة سنة... هيه! كانت أيام!

أخذ قنينة بيرة كانت أمامه، وأخذ جرعة طويلة منها لعلها تنسيه مرارات العمر التي ما استطاع منها فكاكاً. كانا في شقتهما الصغيرة يحتسيان البيرة متقابلين، انتصبت بينهما طاولة صغيرة تحمل قوارير البيرة، وصحن به مخللات لزوم "المزمزة". فاتح البشرة، مربوع القامة، له عينان خضراوان، غزته صلعة مبكرة جعلته يبدو أكبر من عمره الحقيقي.

– أكمل!

ناداه "مثنى" في غيابه عندما رآه ساهماً فيما مر.

– هاه! (كمن انتبه) المهم يا صاحبي، توسط لي زملاء والدي عند ريس المركب لأخذ مكان المرحوم، وهذا ما تم، اقتحمت البحر في سني المبكرة تلك بحثاً عن لقمتي، أحببت البحر، كان صديقاً لا يخون، كان أنيسي وصديقي في سخرتي تلك على ذلك المركب. مركب صغير يعمل عليه صيادون فقراء يجدّون في يأس لاستخراج طعام أطفالهم من بين براثن وأنياب المجهول.

لم ترض تلك المركب طموحي، لم تشبع نفسي المغامرة من رحلات بائسة للبحث عن سمك رخيص لا يكاد يباع في الأسواق، كنت أريد أن

أجوب الآفاق وأطأ أماكن لم يرها أحد من قبلي. ثم إني انتقلت إلى مركب يوناني لنقل البضائع رغم رفض أمي، لكنني أصررت على رأيي. "يا ولدي أخاف عليك، البحر غدار!". كانت المسكينة شديدة الجزع عليَّ، عميقة الحزن على فارسها الذي غادرها سريعاً، لذلك اختصرت زيارتها إلى الحياة مبكراً ورحلت هي الأخرى، فبقيت وحدي، ولعل هذا ما جعلني أكثر حرية في الانطلاق، من ميناء إلى آخر ومن حانة إلى أخرى، حتى رست بي إحدى السفن في ميناء نيويورك التي دخلتها أنت سباحة.

أما أنا فقد كان حظي أحسن من حظك (قالها ضاحكاً)، فقد كنا في الصيف والسباحة رغم بعد المسافة لم تكن عائقاً أمام سباح ماهر مثلي.

أين أذهب؟! كان همي الوحيد الإجابة على هذا السؤال، فلا أوراق هجرة رسمية ولا يحزنون، فقط بضع قطع فضية هي كل ما أملك من حطام الدنيا. قضيت الأسبوع الأول في الشوارع، أنام في الحدائق وأسرح طوال النهار أبحث عن عمل. كنت أتكلم قليلاً ببعض الجمل الإنجليزية نتيجة لاحتكاكي ببحارة إنجليز وأمريكان وأستراليين وغيرهم على شواطئ المتوسط. وأخيراً وجدت عملاً في مدفأة إحدى العمارات، إضافة إلى غرفة صغيرة إلى جوارها. بدأت أعرف الاستقرار نوعاً ما، على الرغم من قسوة العمل، فقد كنت أقضي الليل ونصف النهار في تموين المدفأة بالفحم، حتى تعرفت على "شرلي"، البنت البيضاء التي سحرتني والتي كانت تعمل في نفس العمارة وتقوم بتنظيم الشقق. وبعد فترة قصيرة تزوجنا، كانت أسعد سنة في حياتي، سنة واحدة يا ناس (كان مفعول البيرة قد بدأ يتسرب في عروقه وبدا انفعاله واضحاً)، أنجبت لي بنتاً شقراء كانت كل حياتي، أسميتها "ماري"، على اسم المرحومة أمي. وذات يوم عدت إلى شقتنا الصغيرة التي انتقلنا إليها بعد الزواج فلم أجد "شرلي" أمامي، ولا "ماري"، بحثت عنهما في كل مكان، وسألت الجن والمجانين، فلم يخبرني

أحد. كانت قد وضعت رسالة من بضعة أسطر قالت فيها إنها ستتركني، وقد فعلت. كدت أجن "يا زلمة" لقد كنا نحب بعضنا، ما الذي دهاها، ما الذي صنعته معها حتى تغادرني مرة واحدة وإلى الأبد بطريقة قاسية كهذه دون إنصاف أو رحمة. لم أجد من يجيبني على السؤال. كس أمها عيشة! كثيراً ما كنت أرى "ماري" الصغيرة في كوابيسي جائعة تبكي، فأستيقظ من النوم وأقضي بقية الليل في البكاء. يا أخي تعبت من نفسي ومن حياتي!

بدا "حنّا" شديد التوجع وهو يثرثر عن حياته، كان قد أفرط في الشراب ولم يعد هناك من يستطيع أن يجبره على السكوت. "هل تدري لماذا رحبت بك في بيتي عندما أتى بك جورج؟! لم أكن أعرفك لكنني أحسست أنك الأخ الذي قضيت عمري أبحث عنه، أخٌ أبكي بين يديه ضيعة عمري، دون أن أشعر بالخجل، أخ أموت في سبيله لو اقتضى الأمر مني ذلك!!".

كان صوته يتهدج، وبدأت دموعه تتساقط بغزارة، ترتسم على وجهه أمارات حزن لا يحتمل. و"مثنى" يراقبه بصمت وشفقة. "تركت عملي في المدفأة وتهت في الشوارع أهيم مثل كلب ضال أبحث عن فلذة كبدي، دون فائدة. وحينما أُسقط في يدي لملمت بقايا روحي، وحاولت الوقوف مرة ثانية على قدميّ، فالتحقت بمطعم "لويجي"، نفس المطعم الذي تعمل فيه الآن لبضعة أشهر، وفرت قرشين وفتحت ذلك الكشك وشوفة عينك حياة ميت وقلب مكسور".

ندت منه التفاتة تجاه "مثنى" فرآه نائماً على كرسيه مثل طفل صغير، مسدلاً على وجهه قبعة كان يعتمرها. "يا بختك (قالها بآهة موجعة) على راحة البال!"، ثم أسقط وجهه بين يديه وأجهش بالبكاء ولم يكن يدري أن "مثنى" كان يبكي هو الآخر.

فصل "شمس" والإبرة والخيط وفيضانات الدمع التي اجتاحت العالم

"قلت لكم خلوني أقوم افتح الباب لـ"عبدالله" يا كلاب، يا كفار، يا اللّي ما تخافون الله!". صرخت "شمس" من زاوية السرير بأرجاء صوتها كله، محاصرةً بعيون زوجها وبناتها وأولادها. "لا حول ولا قوة إلا بالله! جُنَّت المرأة"، وخرج من الحجرة يضرب كفاً بكف على زوجته التي أفقدتها صدمة مقتل ولدها ما تبقى لها من صواب.

"شمس"، أجمل نساء أهل زمانها، التي تزوجت بابن خالها الشيخ ابن الشيخ، وأنجبت له ستة من البنين والبنات، كان "عبدالله" درة قلبها وضياء البصر الذي ترى به.

بعد مقتل وليدها بليلة واحدة أتاها بعد منتصف الليل وحاول إيقاظها برفق، فانتبهت له معاتبة وكأنها تنتظره "أنا لم أنم يا حيد(*) أمك، فقد كنت أنتظرك! ليش تأخرت؟!". لم يرد، كان الحزن يكسو وجهه الأسمر وهو يتأمل الفرح بمجيئه يترجرج في عينيها مثل مركب صغير في بحار دموعها المغرورقة بكل الدموع التي ذُرفت أو لم تُذرف منذ أول الخليقة. "ليش كذبوا عليّ وقالوا إنهم قتلوك يا روح أمك؟!".

(*) حيد: جبل، وتقال عادة لتعظيم الشخص ومدى حبه في قلب القائل.

بكت البنت الكبرى عندما رأت أمها تكلم نفسها، "أماه! صلي على النبي واذكري الله! كلنا سوف نموت". التفتت إليها كلبوةٍ جريحة جرحاً غائراً، وتمخطت بأطراف أصابعها دمعاً وبلغماً ولعاباً اختلطت ببعضها جراء بكائها الذي لم يتوقف، "أصلي على النبي!! ليش أو أنا مجنونة يا كلبة يا بنت الكلب...!!؟". حاولت البنت ضمّها إلى صدرها، فدفعتها بقوة، "أنا أتكلم مع زرعي الباكر، "عبدالله"، أخرجي من قُدّامي خرجت نفسك ونفس أهلك!".

كان يبدو حائراً وقلقاً أثناء ما كان يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً أمامها يحاول إيجاد الكلمات المناسبة لإقناعها بالكف عن البكاء، "أرجوك يا أمي الحبيبة! ارحمي نفسك! أنا لم أمت، إنها كذبة كريهة أرادوا أن يفجعوك بها، بدليل أنني أتحدث معك الآن!".

كان يرتدي بذلة بيضاء تميل إلى اللون البصلي طُرزت بثقوب متفرقة واضحة ونظيفة جداً. "وأيش هذه الثقوب في بذلتك الجديدة؟! رصاص صح؟! رصاص الذين قتلوك؟!". قالتها غير مصدقة ولا تريد تصديق ما آل إليه مصيره وبخته القاتل، لم يرد بل أخرج علبة سجائره وأشعل واحدة وأخذ نفساً عميقاً، فتطاير الدخان من تلك الثقوب متماوجاً سرعان ما تبخر في الهواء.

"قتلوني! هه! صحيح قتلوني!". تمتم وهو يتأمل جسده المنقوش بالثقوب وكأنه يتحدث عن جسد ليس له. "يعني القصة حقيقية! أحرموني منك، يا ويلهم ويلاه! قتلوك". نطقت كلمتها الأخيرة ملحنة بلحنٍ طويل مرتعش النبرات على الذي تراه أمامها ولا تستطيع أخذه بين ذراعيها، وتبكي عليه، فقد لم يُخلق بعد ولوعة وحرقة وشوق يُمطر تمنيات ملتهبة في أن تستيقظ اليوم التالي وتجد نفسها ضحية لكابوس مرعب وكاذب.

نَهَرَها زوجها بلين مئات المرات، قام بنهرها، "ماذا تفعلين عند الباب آخر الليل يا مرة!؟ اطلعي ارقدي وتعوذي من الشيطان!".

أحرقته بنظرة تصهر جبالاً من حديد ممتدة حتى آخر نقطة من نقاط الأرض لا تُرى أو تُسمع. "شمس"، التي دخلت أمريكا منتصف السبعينيات، تحمل في يدها "مداعتها"(*) الأثيرة وكأنها ذاهبة إلى عُرس لشخص قريب، يسبقها أولادها الصغار يتقدمهم "عبدالله" الذي سيُقتَل ذات ليلة شتوية دون أن يُعرف له قاتل. "اطلع أرقد أنت! وإذا طلعت أنا من سيفتح الباب لولدي عندما يعود من عمله!؟".

كل فجر كانت "شمس" تقف كحارس ليلي أمام باب البيت تنتظر "عبدالله"، الذي كان يأتي متعباً مرتدياً بذلته البصلية اللون ذات الثقوب المتعددة. "وليش تأخرت يا روح أمك؟!". كانت تسأله نفس السؤال كل يوم، فلا يرد عليها، يكتفي فقط بتقبيلها على جبينها الناصع البياض ويصعد محزوناً إلى غرفته، يتسرب شعاع مصباح العلية عبر ثقوب البذلة مروراً بجسده ليسطع بوجهها، وسرعان ما تلحق به مسرعة، "عبدالله! قُل لي فديتك ويش هذه الثقوب؟! وأين رجع دمك يا كنز امك الغالي!؟".

لم يكن يلتفت إليها، وكأنه يشعر بالخجل لكونه غدا مجرد ابن مقتول لأُمٍّ لا تريد تصديق ذلك. "تعبان يا مه، حيدي، خليني أنام!".

ملأت دموعها البيت وأرصفة واسفلت الشوارع المجاورة، وبدأت الدموع ترتفع رويداً رويداً، حتى وصلت إلى منتصف بيوت الشارع، مشكّلة بذلك فيضاناً شديد الملوحة.

لم يتذمر أحد جراء ذلك، زوجها، بناتها، أبناءها، الجيران، حتى حاكم الولاية لم يعلن حالة الطوارئ عندما وصل فيضان دموع "شمس" إلى فناء بيته بالعاصمة "لانسينج"(**)، التي تبعد عن "دكس" قرابة الأربع ساعات

(*) مداعتها: نارجيلتها.

(**) لانسينج: عاصمة ولاية ميتشجان.

بالسيارة. وحده "عبدالله" من كان يرجوها التوقف عن البكاء، "توقفي أرجوك! بكاؤك يعذبني"، فلا تعيره التفاتاً. "قسماً بالله لن أتوقف عن البكاء حتى تندمل ثقوبك!".

قال شيخ المسجد القريب إن "شمس" أصيبت بمسّ شيطاني لا شفاء منه؛ "لأن القرآن لم ينفع معها يا عباد الله!"، صرخ بها على الأشهاد وكأنه اكتشف سر الموت. "قبحه الله من إمام! ألم يرَ من قبل أمًّا مكلومة!؟".

كان هذا القول بمثابة النشيد الجنائزي لـ"دكس" لمدة تزيد عن الألف عام.

"خلني أخيط لك هذه الثقوب يا عبدالله أنا فدوك!"، كانت تلاحقه بالخيط والإبرة من غرفة إلى أخرى وهي تتوسل إليه. "خيطك لن ينفع، وبكاؤك لن يجدي مع شخص قتيل مثلي"، فيزداد نحيبها وتوسلها، "خلنا نجرب، فديت عمرك وروحك وشبابك يا عبدالله، أمي وأبوي!".

لم تنفع كل المسكنات التي كانت تتناولها مجبرة. "ليش تشتوني(*) أرقدا!؟ ووليدي من سيفتح له الباب ويجهز له الصبوح!؟(**)، والله ما مجانين إلا أنتم".

قبل أن تسمع بخبر مصرع "عبدالله" كانت تمشط غرف البيت والخوف يصرخ في نظراتها. "قال لي. سامحيني يا اماه! وذهب ليقتلوه، فارجع أنا فدوك وسوف أسامحك على ما تبقى لي من عمر يا اللّي عمرك ما رديت لي كلمة أو رفعت صوتك في وجهي".

استسلم الناس في عموم الولاية لطوفان دموع "شمس" الذي لا يتوقف، وعرفت المدن، مثل ديترويت وديربورن ولانسينج وغيرها من المدن، عصر القوارب الجديدة المصنوعة خصيصاً للعبور عبر أمواج دموع "شمس العاتية"؛ "فمن ذا الذي يستطيع إيقاف أُمٍّ صالحة عن البكاء على فلذة كبدها

(*) تشتوني، في العامية اليمنية: تريدونني.

(**) الصبوح: الفطور.

الذي قُتل غدراً وبدون ذنب؟!". كلمات حاكم المدينة كان لها وقع سحري على قلوب بعض الذين بدؤوا بالتذمر، بينما "شمس" كل فجر لا تزال تنتظر "عبدالله" بالإبرة والفتلة لعل معجزة تحدث وتندمل تلك الثقوب.

ولدت "شمس" في عام السفينة(*) الماحق، وكانت محظوظة بخروجها من مذبحة الجدري تلك بوجهٍ سليم، ذلك الوجه البلوري البديع التقاسيم الذي لم يعرف تاريخ نساء "جُبَن" له شبيهاً من قبل، وعندما انقلبوا على السَّلال(**) كانت قد صارت أمًّا لبنت في السادسة من العمر، وعندما أكل الناس لحوم الحمير في صنعاء(***) ولدت "عبدالله"، "الرجّال"، كما كانت تسميه. ومنذ أن وضعته في المهد حتى وصوله إلى اللحد لم تحب "شمس" أحداً من أبنائها وبناتها كما أحبت "عبدالله".

"لو كنت أعرف أن حبي لك قد يقتلك ما كنت أحببتك، يكفيني أن أراك تمشي بعافيتك أمامي لا يوجعك أو يؤذيك شيء وأموت أنا يا كبدي وليس أنت".

كان دخول "شمس" إلى الولايات المتحدة أهم حدث في ذلك العام السبعيني. "شمس" التي رفضت الذهاب إلى السفارة لاستلام فيزا الهجرة لولا أن "عبدالله" ترجاها باكياً أن توافق لأنه يريد أن يعيش في "مريكن"، تتذكر كيف قالها بلثغته المحببة، فيزداد أنينها ونحيبها ويرتفع مستوى طوفان الدمع في الأنحاء. "ليتني متُّ أو أكلني الطاعون قبل أن أدخل هذه البلاد الملعونة بنت ألف ملعون ليتني..!!".

(*) عام السفينة: هو عام انتشار وباء الجدري أواخر أربعينيات القرن العشرين وسمي بعام السفينة لكثرة ضحاياه من الأموات.

(**) السَّلال: المشير عبدالله السَّلال، أول رئيس يمني بعد الثورة.

(***) لحوم الحمير: إشارة إلى حصار صنعاء ١٩٦٧م من قبل قوات الملكيين، وقد بلغت شدة ذلك الحصار مبلغاً دفع سكان صنعاء إلى ذبح الحيوانات لمواجهة الجوع جراء الحصار الذي انكسر لاحقاً بفضل بسالة الجمهوريين في الدفاع عن ثورتهم السبتمبرية.

فجأة صمتت وأخذت تتلفت كالمجنونة في كل مكان، وارتفع صراخها، "لا يا عبدالله أمي وأبوي! لا تتركني وحدي! خلاص سأتوقف عن البكاء، لكن لا تخليني وحدي بدونك!".

توقفت عجلة الحياة في "دكس" ولزم الناس قواربهم تعاوناً مع "شمس" في حزنها الذي يبدو ألاَّ نهاية له.

مرة، مفاجأة، توقفت عن البكاء وأخذت تهيئ نفسها لأمر سرّي لم يعلم به أحد سواها. ففرح زوجها وأولادها لتوقفها عن النحيب، ولم يعلم بسرّها أحد في البيت.

فلقد قررت اللحاق بـ"عبدالله" بأي وسيلة وبأي ثمن. لم تخبره بما قد نَوَت، فأضاء وجهه عندما توقفت أمه عن ثبورها الطويل وقرر المغادرة إلى غير رجعة. ودَّعته بدون دموع. غادر البيت مسرعاً، وهي تراقبه بعينين ممتلئتين بكل بحار دمع خُلقت أو لم تُخلق بعد. وعند المنعطف الأول للشارع اختفى "عبدالله" ولم ترهُ "شمس" بعد ذلك إلا بعد مرور عشر سنوات كاملة.

عندما استيقظت من نومها، ذات يوم نسي الرواة تاريخه واسمه، ووجدته واقفاً على رأسها مبتسماً كما لم يفعل من قبل. "صباح الخير يا اماه! الآن يمكنك المجيء معي".

مدت يدها بشوق كل أمهات الأرض وقفزت من سريرها مثل فتاة صغيرة، وعانقته بكل دموعها وفيضانات الدمع التي سفحتها كمداً عليه، وبكل قلبها وأنَّاتها في الليالي الموحشة الطوال، وبكل فرح أُمٍّ قُتل وليدها وعاد إليها من البرزخ فجأة، دون أن تبكي أو تذرف دمعة واحدة. "اشتقت لك وانتظرتك طويلاً يا زرع جوفي والماء! كل ليل وكل نهار وكل صبح وكل ظلال، وها قد رجعت لأمك جعلني فداء لتراب رجلك!".

"شمس" التي ما جفت لها دمعة، والتي ذرعت كل شوارع الحزن وحيدة في انتظار الذي سافر بعيداً عنها دون كلمة وداع أخيرة.

أقسم رجل صالح أنه رأى "شمس" تتأبط ذراع ابنها "عبدالله" بعد خروجه مباشرة من المسجد بعد صلاة الفجر، وأنها كانت تضحك ضحكاً لم يسمع أعذب منه في حياته التي شارفت المائة.

آخر قال ...!

مسنة أمريكية قالت...!

نهضت "شمس" من سريرها ريّانة كألف غابة من أقحوان، وارتدت ثيابها على عجل، ولم تخبر أحداً بوجهتها، ومضت دون ضوضاء، يفتر ثغرها عن ابتسامة خرجت منها ألف أغنية عن الحنين وحُرقة الفراق.

قالت سحابة عن نورس قادم من بحر منسي، عن سنديانة تخرج الحكمة من عذقانها، عن الحُميد ابن منصور(*)، عن سنبلة صيف لم يعد لها مثيل، إنهم رأوا "عبدالله" وأمه ذات فجر مقمر متجهين إلى استراحة قيد الإنشاء بوادٍ ذي زرع لم يسجله كُتّاب السِّيَر الغابرة والأساطير المروية على كل لسان، وقد كان "عبدالله" يرتدي بذلته البيضاء المائلة إلى اللون البصلي، لكن دون ثقوب هذه المرة. بينما أمه "شمس" تبدو إلى جواره نضرةً مثل تفاحة جيء بها من بلاد صين الصين وكأنها لم تبكِ قط.

..."شمس"!!!

(*) الحميد ابن منصور: حكيم يمني شهير عاش قبل سبعمائة عام كما يقول الرواة.

فصل الأماني الكاذبة التنبؤات والدلائل

— وإذا وفقني الله يا "حنّا" في العمل سوف أدخر المال لكـي أعـود إلى بلادي لأتزوج وأقضي فترة هناك أزور فيها أهلي وأعود.

— تهريب!؟

— تهريب، هجرة، المهم سأعود!

— قل إن شاء الله!

— إن شاء الله!

— وبعد ذلك ...!؟

كانا يسيران على غير هدى، يـأكلان البوظـة في تجـوالهما الطويـل، وثمـة خوف لا يدركه يدهم "حنّا".

توقفا أمام مطعم "لويجي" وأشار بيده

— هنا سوف تعمل منذ اليوم.

دخلا المطعـم، واسـتقبلهما "لـويجي" بابتـسامة متكلفـة، ومـن ورائـه "جينا" الفاتنة وشبقها الذي لا ترويه أُمم من فحول الرجال.

فصل السكينة والموت والخاتمة الملعونة الأسرار والخبايا

كنت قد أفرطت في الضياع، أبحث عن سكينة ليس لها عنوان. نسيت الله، ابتعدت عنه، مرت بي الأيام مثل شيطان، كنت أستغرب سرعة انزلاقي بسهولة في معمعة الحياة الأمريكية السهلة والبشعة التضاريس؛ لكن من يستطيع أن يمنع البدوي من الخوض في البحر وهو يراه للمرة الأولى في حياته.

كثيراً ما لامت "ديبي" نفسها لأنها عرّفتني على أول الطريق، في البداية سهرات ومجون، وأخيراً كوكايين وتَهَتُّك لا حد له. تحسنت بعض أموري وحصلت على إقامة دائمة، وصار لي بيت يجمعني بزوجتي وابني "مايك"، كما أسمته جدته، أو "محمد" اسمه العربي. تخففت بعض أعبائي الحياتية عندما بدأت العمل في ورشة التغليف، لكن شعوري الدائم بالضياع كان يطحنني.

ولطالما فعلتها مراراً، أقف أمام المرآة أسأل نفسي عني، عن هذا الرجل المدجج بالخواتم والقلائد والذنوب، فأشعر باشمئزاز من ذاتي وأود التبرؤ من حياتي؛ "أريد أن أبدأ حياة جديدة، رجل ليس له ذنوب أو احتقار عارم للذات".

هربت من "دكس" ومن حاناته الرخيصة التي كنت أقضي فيها ليالي طويلة في معاقرة الخمرة، هناك حيث تعرفت لأول مرة على مسحوق الكوكايين المخدر، ذلك المسحوق الذي كان يأخذني إلى عوالم من النشوة الزائفة المثيرة للغثيان والهلوسة. لم أكن أجد سكينتي إلا في الأوقات التي

أقضيها مع "ديبي" و"محمد"، هربت من النميمة والحسد ومن معارك الوهم والعملقة الكاذبة وبائعي المخدرات، ومن الشماتة التي كنت أراها في العيون، تلك العيون التي كنت أرى فيها ضياعي، ذلك الضياع الذي كانت جدتي تحذرني منه في رسائلها الكلامية المسجلة في شريط كاسيت إلي وتدعوني إلى تقوى الله وتسديد ديوني المتراكمة هناك في الوطن.

كانت كثيرة الدعاء والنصائح والتمنيات، وأنا أنا، تمثال، لا يسمع ولا يعقل، جامد الشعور، كما لو كنت في غيبوبة. ومع ذلك لم أحاول أن أنقذ نفسي مما أنا فيه، رغم إحساسي وألمي بواقعي المتردي.

أهلَّ أحد الرمضانات، وكان أن صادف أول يوم فيه يوم جمعة، ومثل يتيم وجدت نفسي هناك، في المسجد الذي ابتعدت عنه دهراً طويلاً، دخلته مثل تائه أو ضال عاد أخيراً إلى بيته، كان الخجل يكبلني، ليس من الناس، فلست أحفل بهم، وإنما من الله؛ كنت أقف بروحي عارية أمام النقاء الذي افتقدته كثيراً.

دخلت واجف النفس بعد أن تخففت من أحمالي الذهبية، أتيت باكياً إلى ربي، الذي سرعان ما تركته بعد أن تم طردي من الورشة، وأهيم على وجهي من جديد، تجلدني نظرات ابني عندما يتساءل بعينيه عن سر غياب أمه وبقائي أنا إلى جواره، والدته التي تعمل لكي تعولنا نحن الاثنين، فزاد احتقاري لنفسي وتبلدت أحاسيسي.

بحثت جاهداً عن عمل في كل مكان، لكن الحظ الأسود كما هي عادته كان يقف لي بالمرصاد، وأخيراً وجدت عملاً في محطة بنزين، على شرط أن يكون دوامي بعد العاشرة ليلاً، انقبض قلبي لذلك الشرط الكريه، لكن لم يكن أمامي خيار آخر، يجب أن أحافظ على ما تبقى لي من كرامة، على الأقل أمام زوجتي. وبدأتُ العمل وحكاية "عبدالله" و"قاسم" تلاحقني في كل مكان، لكن إذا كان لا بد من الموت واقفاً بقليل من احترام لنفسي فأهلاً به.

كرهت العيش في ظل امرأة تعمل كي تطعمني، حتى لو كانت هذه المرأة أمي وليست زوجتي. أعاد الصوم لي قليلاً من سكينة وطمأنينة افتقدتها طويلاً. كنت أظن أن "دكس" ليل حالك، لكنني عندما دخلت المسجد رأيت الشمس هناك، شمس دافئة تذيب جليد الروح المتعبة، وأخذت أحدث "ديبي" عن ديني، "ديبي" التي فرحت عندما رأتني تغيرت. كنت أعود من العمل إلى البيت حيث أقضي قليلاً من الوقت أتناول فيه بعض الطعام وأغير ملابس الشغل ثم أتجه إلى الجامع كي أبدأ البكاء بين يدي الله، عرفت هناك وجه "دكس" المضيء، وجوه شابة نقية قوية الإيمان مع مسحة سذاجة بريئة، لكنه كان إيماناً صادقاً، كنت أشعر بالضآلة أمامهم لكثرة مغامراتي الغبية وشديدة الفسق. لكن لم يدم تعلقي بالمسجد كثيراً، فبمجرد أن رحل رمضان حتى رحلت أنا أيضاً، فلم أستطع منع نفسي من الحسد، حسد أولئك الذين كانوا يبتسمون في وجهي بصدق كنت أكرهه، كنت أحسها ابتسامات مجاملة تُنفح على سبيل الشفقة أو الإحسان، وقد كرهت ذلك، بينما أنا تتقاذفني المصاعب والنكبات، لذلك لم يدم التصالح كثيراً مع الله، وأنا الذي كنت ومازلت بحاجة إليه، وعندما وجدت نفسي مطروداً وبدون عمل كفرت بكل شيء.

لقد ظننت أن الله لا يحبني، كنت أحمقاً كبيراً، وكان تفكيري عاجزاً على فهم الأمور، لكنه التعب من كل ما حولي، كان يفت في عظمي، فكلما حاولت أن أبني بناءً استشرف منه مستقبلي سرعان ما ينهار على أُمِّ رأسي، ذلك المستقبل الغائم الذي لم أستطع تبيُّن ملامحه حتى الآن.

بدأت الوساوس تدب في طاسة رأسي، فأفزعني ذلك الشعور البغيض؛ هل بدأت السير باتجاه حافة الجنون أنا أيضاً؟! ذلك السؤال المباغت مثل طلقة أقضت مضجعي لأيامٍ وليالٍ طوال.

وعندما كنت أتخيلني أركض عارياً في شوارع "دكس" أشعر بالرعب يشتعل داخلي، ضحكة محمد كانت تعيد لي توازني وحنان "ديبي" كان سنداً وعوناً لا أستحقه، فقد خنتها مرات ومرات مع أنها طلقت ماضيها الأمريكي وقبلت بي زوجاً على علاقتي الكثيرة، رغم إدراكها سبب زواجي منها، لكنها لم تيأس مني، مع علمها بتهوري وانحرافي رغم ضربي لها عندما يطوحني الكحول. كانت حياتها لا تطاق معي، ومع ذلك لم تطلب الطلاق أو تبادر إلى تطليقي، كانت تبدو أكبر من سنها، وبدا وأنها قد ربطت مصيرها بمصيري إلى الأبد.

كنا ضائعين في عالم وحشي شديد القتامة لا يرحم. وعندما وصلت فجأة تلك الليلة، ورأتني مضرجاً بدمائي، صرخت بأعلى صوتها "علي! علي!!"، بينما كنت أنزع في موتي ولم أعد أحس بمن حولي يمزقني ألم لا يطاق.

كان بعض الزنوج قد باغتوني وأخذوني على حين غرة، كنت مغفلاً عندما أمنت لهم، فلقد أغراني الوقت المبكر، ولم أغلق على نفسي باب الغرفة الزجاجية المحصنة ضد الرصاص، كان ذلك بعد دقائق معدودة من استلامي لنوبة عملي التي تنتهي في السادسة صباحاً.

لم أظن أن تلك الليلة ستكون آخر ليلة لي على هذه الأرض. لم يسألوني، لم يحذروني أو يعطوني فرصة صغيرة للدفاع عن نفسي، فقط أطلقوا النار. كانوا ثلاثة مراهقين، أصابتني طلقاتهم في الصدر والبطن، ألقيت بنفسي على الأرض متظاهراً بالموت لكي لا أترك لهم فرصة الإجهاز عليّ، أخذوا النقود وولوا هاربين، حاولت النهوض والاتصال بالبوليس، لكنني كنت دائخا، يشلني رعب قاصم، أرتجف خوفاً من الموت، وكنت أبكي. حينما أقبلت "ديبي" ورأتني على تلك الحال قذفت بنفسها عليَّ وضمّتني إلى صدرها صارخة بكل ما في صوتها من قوة وذعر

- عليييييي...!!

نادتني فلم أستطع الرد، كنت أبكي نهايتي، لو أنني علمت بتلك النهاية ما قدمت إلى أمريكا.

تذكرت جدتي، عندما تعلم بمقتلي ربما تموت كمداً وحسرة، فلم يعد معها في هذه الحياة سواي. تذكرت وطني البعيد، وأصدقائي، وأنا أبكي عمري وحظي المنكود. كانت المسكينة تبكي، البنت الحلوة التي طالما عذبتها. اتصلت مولولة بالبوليس والإسعاف، سمعت أبواق السيارات وهي قادمة من بعيد تنهب الأرض باتجاهي لكي تنقذني، وحدي في ذلك الليل الغريب.

دهمني عرق غزير، وكانت دمائي تنزف وأنا أبكي، و"ديبي" تبكي، وابني يخطر في ذاكرتي المشوشة فيزداد بكائي...

- ساميحيني يا "ديبي"! عذبتك كثيراً!

- أنت بخير يا علي، لا تخف! أنا بجوارك.

- إني أموت!

- ما زلت في حاجة إليك يا حبيبي! أرجوك، تماسك!

- أموت يا "ديبي"، تعبت...!

شقني ظمأ ماحق، اجتاحني مثل نار حارقة، و"ديبي" تحتضنني باكية.

- عطشان يا "ديبي"، اسقيني!

قامت المسكينة مثل المجنونة تبحث عن ماء. وعندما دخل رجال البوليس والإسعاف مسرعين باتجاهي كانت حركتي قد هدأت تماماً.

ما يشبه التعريف

عبدالناصر مجلي:

- شاعر وقاص وروائي وناقد يمني أمريكي.
- مقيم في الولايات المتحدة الأمريكية.
- عضو اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين والعرب.
- شغل منصب رئيس تحرير صحيفة "العربي" الأمريكية.
- تم تكريمه من قبل "البيت العربي الأمريكي الثقافي" على مجمل إنتاجه الشعري ديترويت ٢٠٠٠م.
- دُرّس كتابه القصصي "ذات مساء.. ذات راقصه" في جامعة صنعاء تحت إشراف الناقد الدكتور عبدالملك المقرمي.
- ناشر ورئيس تحرير صحيفة "الأمة" التي تصدر في الولايات المتحدة باللغات: العربية، الإنجليزية، والإسبانية، وموقع "الأمة نت" **www.thenationpress.net**
- **E.mail:thenation21@yahoo.com**

صدر له:

- ذات مساء.. ذات راقصة (قصص)، القاهرة ١٩٩١م.
- سيرة القبيلة (شعر)، عمان ١٩٩٥م.
- السيرة الرملية للفتى البحر (شعر)، الهيئة العامة للكتاب، صنعاء١٩٩٧م.
- رجال الثلج (رواية)، نشرت مسلسلة في جريدة "الثقافية" اليمنية، ٢٠٠٠م.
- جغرافية الماء (رواية)، نشرت في جريدة "الثقافية" اليمنية، ٢٠٠٣/ ٢٠٠٤م.
- انطولوجيا الأدب السعودي الجديد، بيروت ٢٠٠٥م.

في النقد:

- الوحشية المضادة: قراءات في سطور أدب وحشي "نظيرة نقدية جديدة". نشرت مسلسلة في كل من صحف: "الزمان" اللندنية، "الخليج" الإماراتية، "الثقافية" اليمنية، ٢٠٠١م.

في الترجمة:

- ترجمت بعض أعماله القصصية والشعرية إلى الإنجليزية والفرنسية والسويدية والإسبانية.

عبد الناصر مجلي يصدر ((رجال الثلج))

صدرت قبل أيام عن مركز عبادي للدراسات والنشر رواية ((رجال الثلج)) للكاتب اليمني الأمريكي عبد الناصر مجلي . ورجال الثلج رواية متسارعة الأحداث متعددة الأبطال والنهايات . تحكي عن واقع غربة المهاجرين داخل المجتمع الأمريكي . تتحدث الرواية عن ضياع المهاجرين وتيههم ومصائرهم التعيسة والحزينة . من عبد الله الذي قتل ذات ليلة في محطة البنزين ولم يعرف له قاتل . الى مثنى وحنا وعلي وديي ولويجي المجنون وتبينو وكارولين وغيرهم . الذين عصفت بهم أقدار وحشية وثقيلة لا حاجة لمخلوق بتحملها (صحيفة النداء)

الرواية تحكى غربة الثقافة

انها رواية ذات أبعاد وفضاءات انسانية واسعة . تتحدث عن عوالم الغربة والهجرة ليس على مستوى الفرد . بل على مستويات الثقافة والمعرفة والإعتزاز الحضاري بتراث الأمة ودفاعاً عنه (من صوت العمال)

الشاعر عبد الناصر مجلي روائياً

منذ مجموعته القصصية الأولى ((ذات مساء)) وهو يقفز . بل يطير نحو عوالم الإبداع المختلفة بأجنحة عصية على الذوبان . روايته عمل روائي متميز . ومن المستوى العالي رؤية وتقنية سبق في أجوائها الملبدة بالثلج والغيوم أياماً .

هل أقول أنها تجمع بين سيرة الذاتية والخيال الروائي . بين الواقع والتخييل وأنها هجرة بعيدة الى الغرب البعيد بمشكلاته وأحزانه وأنها قراءة من الداخل لأمريكا المنخورة ولواقع المهاجرين العرب وغيرهم من بني البشر الطيبين والأشرار .

((رجال الثلج)) رواية بديعة وجديرة بالقراءة . أ . د عبد العزيز المقالح . عن صحيفة الثورة

عبد الناصر مجلي ورجال الثلج الغريبون

((رجال الثلج)) في تجربة عبد الناصر مجلي الروائية . لم تكن الأولى من حيث الكتابة . فقد سبق ونشر فصلاً من عمل باكر عنونه بـ ((الحصن)) وهي أيضا ليست الأخيرة .

لقد كانت الهجرة سبباً مباشراً ومحفزاً لكتابة العمل الروائي ((رجال الثلج)) وهو أضاف للمكتبة السردية والروائية في اليمن عملاً مائزاً . استطاع تحويل السيرة اليومية . الى لحظة كتابة عن الوجوه والأمكنة في مستقراتهم البعيدة والقريبة ومقدار الأحلام التي انسربت من بين الأصابع الباحثة عن حضورها في عالم مجنون يبتدئ بالحلم البعيد . وقد ينتهي بطلقة في الرأس من مخمور أو لص في ليل بهيم وبارد !! (صحيفة التجمع)

رجال الثلج لعبد الناصر مجلي واقع الغربة الأمريكية القاسية

عبد الناصر مجلي صوت عربي إبداعي حداثي شديد التميز والمغايرة والفرادة وهو كما يصفه أستاذ الجيل الشاعر الكبير الدكتور عبد العزيز المقالح ((مبدع شامل ومتمرد ودائم التوهج)) ورواية ((رجال الثلج)) وثيقة مهمة تسلط الضوء على واقع الغربة الأمريكية . وعبد الناصر مجلي صاحب ذات مساء.. ذات راقصة . وهي أول مجموعة قصصية تطبع في عقد التسعينات . وهو العقد الذي يعد مجلي علامة هامة وريادية فنية . فقد بدأت باكرا قدرته على المغايرة داخل العمل الفني الإبداعي لتؤكد توقيع اسم حداثي شديد الخصوصية . (صحيفة الثوري)

رجال الثلج .. رواية المتنوع الحر لـ عبد الناصر مجلي

((رجال الثلج)) يمكن تسميتها ملحمة درامية حضر فيها الإنسان بوجوده . وليس بجنسية أو بديانته أو هويته . والمناطق والمدن دون سياج . أو حدود تناوبتها الأحداث والقضايا . إبتداء من القضايا الشخصية البسيطة وصولاً الى القضايا الوطنية والإنسانية . متشبعاً كل ذلك بباقات من الآمال والطموحات والرغبات والمثالية . وعبد الناصر مجلي اسم ابداعي له مكانه وحضوره المميز في المشهد اليمني والعربي (الملحق الثقافي – صحيفة الثورة)

أخي القاص والروائي عبد الناصر مجلي المحترم

أشكرك شكراً جزيلاً على اهدائك لي روايتك ((رجال الثلج)) ومجلد أعمالك القصصية فقد أتحت لي بذلك الإطلاع على نتاج رائع في ميدان القصة والرواية . وعلى الرغم من اختلافي معك في عدد من الأمور في روايتك ((رجال الثلج)) فانها تقف شامخة في ميدان الرواية اليمنية والعربية وهي تتكشف عن اطلاع واسع وتمكن في الأدب الغربي . وعلى رصيد ثر من الحياة العريضة التي عشتها في الولايات المتحدة .ولا شك أنك كنت متفردا في أسلوبك المتميز الذي أبرز معالمه التكثيف الشديد والبعد عن التقعر والإبهام والذي يرتفع أحياناً الى الشعر . وهذا أمر غير غريب عليك فأنت قبل كل شيء شاعر وقد انتفعت هذه الرواية من افقك الشعري الرحب والجميل.

أ.د شاكر خصباك . من رسالة الى المؤلف.



مركز عبادي للدراسات والنشر
ص.ب : 662 ـ صنعاء
ت : 485691 / فاكس : 485692
سيار : 777219617
الجمهورية اليمنية